obeikandl.com

— ٤ —

لودولف فون سوخم
وصف الأرض المقدسة
١٣٥٠م

obeikandl.com

تمهيد للودولف دي سوخم

ما من شيء كما يبدو هو معروف عن لودولف، زيادة عما يمكن جمعه من كتابه، ففي تكريسه الاهدائي أخبرنا بأن كان قسيساً في أبرشية كنيسة سوخم، في أسقفية بادربورن، لكن أين كانت سوخم، وهل علينا أن نلفظها سودهيم Sudheim؟ وقد أعلن الدكتور ف. دايك Deycks أنها بالحري راثل Rathsel ، وكان الدكتور دايك أستاذاً في الأكاديمية الملكية في مونستر Munster ، وهو الذي تولى تحقيق كتاب لودولف في عام ١٨٥١، لصالح النصوص الأدبية لستوتغارد، وعلى هذه الطبعة اعتمدت هذه الترجمة، فضلاً عن هذا تحدث لودولف عن بلدوين فون ستينفورت Steinfurt أسقف بادربورن، الذي شغل منصبه من سنة ١٣٤٠ حتى سنة ١٣٦١، ووصفه بأنه سيده المنعم عليه، وقال في خاتمة مخطوطه بأنه كتب هذا الكتاب صدوراً عن الحب والاحترام اللذان يكنهما له، ولربما ساعده الأسقف بلدوين على كتابة كتابه، ولعله كان واحداً من السادة النبلاء الذين عاشوا معه أثناء إقامته لمدة خمس سنوات في الأرض المقدسة، فقد كان هناك من سنة ١٣٣٦ حتى سنة ١٣٤١، ولم يعد إلى هناك — كما يخيل لبعضهم — وعاد لودولف إلى الوطن سنة ١٣٤١،

وتعرض مرتين لخطر عظيم وهو في البحر، وأشار في نهاية كتابه إلى مهاجمة اليهود في ألمانيا في سنة ١٣٤٨ — ١٣٤٩، وهذه الحادثة الجديدة، تتماشى مع كتابه على أنه صنف في سنة ١٣٥٠.

ومنهج لودولف يختلف عن منهج الرحالة بورتشارد المتقدم، وهو أقرب إلى منهج فيلكس فابري الذي سماه بالعجائب، فقد ردد أصداء بعض الحكايات التي كانت متداولة في الشرق، بين الفرنجة بشكل

خاص، لاسيما ما تعلق بشخصية برسترجون، التي سوف نتعرض لها بتوسع لدى الحديث عن العلاقات المغولية الفرنجية، ومعروف أن حكاية برسترجون قد تفرعت عنها فروع كثيرة بعد ظهور جنكيز خان، ثم بعد قدوم حفيده هولاكو نحو العراق وبلاد الشام.

ومهما يكن من أمر تأتي ترجمة كتاب لودولف في سياق عملنا في ترجمة نصوص جميع الرحلات المتعلقة بالحروب الصليبية، وآثارها المباشرة في القرن الرابع عشر،هذا ومن المقرر أن كتاب لودولف يحوي أفضل الرحلات الغربية في هذا القرن الهام.

لودولف فون سوخم
وصف الأرض المقدسة
هنا بداية كتاب لودولف حول الحج إلى الأرض المقدسة

إهـداء مع جميـع الاحترام الجدير، إلى الأب المبجـل، والسيـــــد في المسيح، مـولاي المنعم بلدوين أوف ستينفـورت، أسقف بادربورن، من لودولف القسيس في الكنيسة الأبرشية في سوخم، في أسقفية بادربورن.

لقد كتب عدد كبير من الرجال بشكل طويل جداً حول بلاد ما وراء البحر، وحـول أوضاع وأحوال الأرض المقـدسة والمقاطعـات الموجودة فيها، وفعلـوا ذلك بعد مرورهـم بها لمرة واحدة، أما أنا فلقـد أقمت في تلك البلدان مـدة خمس سنوات دونما انقطاع، كنت خـلالها ليـلاً ونهاراً بصحبة الملوك، والأمـراء، والمقدمين، والنبلاء، والأعيـان، وقمت فضلاً عن ذلك بزيـارة بلدان مـاوراء البحـر والسفـــر خـلالها عـــدة مـرات، وصدوراً مني لاحترامكم وتبجيلاً لمحـاسن أبوتكم، ولأنكم لم تنسوني، امتلكت رغبة عظيمـة لأن أكتب رواية عن أوضاع تلك البلدان، وعن أحـوالها، وقـراها، وأمـاكنهـا الحصينـة، ومـدنها ،وقـلاعهـا، ورجـالها، والأخلاق والطبـاع فيها، وأماكن التعبد، والأمـاكن العجيبة، ولم أكتف بالكتـابة عن بـلاد مـاوراء البحـر، بل عن العجـائب التـي يراها الذين يعبرون البحار، ومع أنـه قد توفرت لـدي الرغبة في تنفيذ هـذه الرغبة، غير أنني لم أستطع فعل ذلك وإنجازه، لأنني كنت معـوقاً بأعمال مختلفة وثقيلة، ومع ذلك بقيـت مفكراً بالكتـابة، والآن وقـد امتلكت الوقت، فقد قـررت أن أصف الأوضاع التي رأيت فيها بلدان مـا وراء البحر في سنة ١٣٣٦، وكـذلك الأوضـاع التي تركتهـا فيهـا في سنة ١٣٤١، وأن أكتب تـاريخاً مختصراً عنهـــا، وبشكل مكثف، وذلـك وفقـــاً لفهمي

المتواضع، ولقدرتي، ولضعف ذاكرتي، وعلى كل حال، يتوجب أن لايفترض إنسان أنني قد رأيت كل واحد من الأماكن العديدة، والأشياء التي أنوي الكتابة عنها في هذا الكتاب، بل إنني قمت سعيداً باستخراج بعض المعلومات من كتب التاريخ القديمة، وذلك مع بعض الأشياء التي سمعتها من شفاه أناس صادقين، وبشأن جميع ما كتبوه عن أي مكان، أووجدوه، لقد قررت الاعتماد على حكم القارىء وعلى فهمه، وفي الحقيقة كان من المفروض أن أكتب أكثر، عندما كنت في تلك البلدان وعملت الرأي أن أكتب عنهم بعض الروايات، وعن أوضاعهم الأبكر، هذا وبإمكاني في هذا اليوم كتابة المزيد،ولكنني تجاوزت ذلك بسبب بعض المعترضين التافهين والساخرين، وخشية أن أتحدث عن أي شيء لايمكن أن يصدقوه، ومن ثم عدّي بسبب ذلك كاذباً، لأن المعترضين التافهين الجاهلين والساخرين الذين لايستحقون أن يعرفوا شيئاً من الأشياء مطلقاً، كل شيء بالنسبة إليهم هو بعيد عن التصديق، ومن غير المعقول الأخذ به، وبناء عليه إنه بسبب مثل هؤلاء الأشخاص، أرغمت من أجلهم على التخلي عن ذكر جميع الأشياء الجيدة، وكذلك أشياء أخرى كثيرة، لولاهم لقمت بالكتابة عنها، وإيداع ذلك في كتابي.

١ — *حول الأرض المقدسة.*

إن الأرض المقدسة، هي أرض الميعاد، التي وعد الرب بأن يعطيها إلى إبراهيم وإلى ذريته، وهي المحبوبة من الرب، والممدوحة من الملائكة، والمعبودة من قبل الناس، لأن ربنا يسوع المسيح قد تلطف في تكريس هذا الشيء نفسه، بدمه الثمين جداً، وأن يشرفها بحضوره في كل من شكل ضعفنا الفاني، وفي الأيام الخوالي — حسبما نقرأ في التاريخ التوراتي — بمجده الرباني وجلالته، وزيادة على هذا بحضوره إلى هناك لتخليص الجنس البشري، من الإدانة واللعنة الدائمة، ومع هذا

فإن هذه البلاد، قد ضربت من قبل الرب بمختلف أنواع الضربات، وذلك بسبب الذنوب المتنوعة لسكانها، ولم تقتصر الضربات التي تلقتها على ما حدث في أيام المسيحيين، بل كان ذلك منذ أقدم العصور، حيث سُكنت من قبل شعوب مختلفة، وفقدت ثم استردت من قبلهم، وذلك حسبما يمكننا القراءة في كثير من التواريخ وفي الكتاب المقدس، ولقد قام يسوع المسيح، دون مبالاة بآلامه الرائعة، بتقويم المسيحيين هناك بوساطة عصا التقويم الأبوي، وبناء عليه، عندما تنتهي ذنوب المسيحيين، وعندما يكون راضياً في إرجاع البلاد وردها إلينا، فإنه سوف يحفظ جميع أماكنها، ومدنها، وقراها، وقلاعها، ومعابدها، كأن نقول: بدون أذى، حتى هذا اليوم، وذلك من أجل إمكانية الدفاع عنها، وسكناها، واستردادها، وإعادة كل ما فيها إلى أوضاعه الأصيلة، وذلك على الرغم من أن بعض الأماكن والمعابد قد تعرضت للتشويه والتغيير بشكل مؤلم من قبل المسلمين، لأنه مثلما العين هي أغلى جزء في جسم الانسان وأكثره لطفاً، ولايمكنها أن تتحمل وجود جسم غريب فيها، كذلك الأرض المقدسة، هي مثل العين للرب، ولهذا السبب لايمكنه تحمل ذنوب لايمكن غفرانها فيها.

وعلى كل من يود السفر إلى الأرض المقدسة المذكورة، أن يكون متنبهاً، حتى لايسافر إلى هناك من دون إذن من الأب الرسولي، لأنه ما أن يلمس شواطىء بلاد السلطان سيكون عرضة لأن يغدو مشمولاً بقرار البابا، لأنه منذ أن أصبحت الأرض المقدسة في أيدي السلطان كانت، ومازالت محرومة كنسياً، ومثلها جميع الذين يسافرون إلى هناك من دون إذن بابوي، وذلك خشية أن المسلمين لدى أخذهم جزية من المسيحيين، أن يندفعوا نحو الاستخفاف بالكنيسة، ولهذا السبب عندما يتسلم أي مسافر جوازه للسفر إلى هناك من الأب الرسولي، يوجد إلى جانب الأذن الذي منح له، هناك شرط في المرسوم يقضي أنه يتوجب

عليه أن لا يشتري أي شيء أو أن يبيع أي شيء مهما كان في الدنيا، باستثناء الطعام واللباس، والحاجات الجسدية، وإذا ما خالف هذا، عليه أن يعرف أنه انتكس ثانية ووقع تحت عقوبة الحرمان الكنسي، ويمكن لبعض الناس أن يسافروا إلى هناك من دون أذن، من ذلك على سبيل المثال إذا كان المسافر رجل دين أو عضواً في إحدى الطوائف الدينية، أو والداً، أو والدة، أو صديقاً لرجل مريض هناك، أو رجل واقع في الأسر، فوقتها يمكنه السفر إلى هناك بدون أذن،حتى يعمل على فكاك أسرهم، كما يحق السفر بدون أذن لأي واحد بعث إلى هناك لصنع سلام، أو للإعداد لاسترداد أي شيء آخر مفيد، وفي عودة إلى موضوعي، إنه يتوجب على أي إنسان يود السفر إلى الأرض المقدسة، أن يذهب إلى هناك إما براً أو بحراً،فإذا أراد السفر براً، فقد سمعت من بعض الذين يعرفون الطريق جيداً، أن أفضل الطرق هو الذي يمر من خلال هنغاريا، فبلغاريا، فمملكة تراقيا، غير أنهم يقولون بأن هذا الطريق طريق متعب جداً، وعلى كل حال إن الذي يمكنه تحمل المشاق والوصول سالماً، سوف يصل بوساطة البر — وليس بوساطة البحر — إلى القسطنطينية، ولسوف أذكر بعض الشيء حول هذه المدينة.

٢— *القسطنطينية*.

القسطنطينية فائقة الجمال، ومدينة عظيمة جداً، وقياس محيطها ثمانية أميال، وقد بنيت على شكل مثلث، وأبنيتها في شكلها وهيكلها تشبه أبنية روما، ويمتد جانبان منها على ضفتي ذراع بحري، اسمه ذراع القديس جرجس(البوسفور) في حين يقوم الجانب الثالث على الأرض، والمدينة مزينة بتزيينات متنوعة ومختلفة، وهي قد بنيت من قبل الامبراطور قسطنطين، الذي سماها القسطنطينية، ويدعوها الاغريق في هذه الأيام باسم بولوس Bolos ويوجد في هذه المدينة كنيسة ذات حجم رائع وجمال فائق، ولاأعتقد أنه يوجد في العالم كنيسة أعظم منها،

لأن سفينة مع جميع أشرعتهـا ممدودة تستطيع أن تدير نفسهـا أمـامهـا هناك، وأنا لاأجـرؤ على الكتـابة عن اتسـاعهـا بشكل كـامل، وهذه الكنيسة مكرسـة على شرف القديسة صـوفيا وذلك بالاغـريقية، ومعنى ذلك باللاتينيـة«تغيير الرب لشكله»، وهي مزينة بكثير من الآثار المهيبـة من مختلـف الأنواع، مـن ذلك:المعطـف الذي لانظير لـه، ومسـامير ربنا(العائـدة للصليب)، والليفة، والقصبات، وهي متوجـة بآثار أخرى لمختلف القـديسين، ويقف في وسط هذه الكنيسـة، عمـودكبير من الرخـام، عليـه تمثال برونزي جيـد التـذهيب للامبراطور جستنيـان على ظهر حصان،وهو مزين بالتاج الامبراطوري، وبالملابس الملكية، ويوجد في يده اليسرى صـولجان ذهبي، وفقاً للطريقـة الامبراطورية، ويشير إلى الشرق بيمناه، وذلك بمثابة تهديد للعصاة الذين في ذلك المكان، ويوجد في هذه الكنيسـة قطعـة من العمـود الذي جلد المسيح عنده، وعـدد لايحصى من أجساد القديسين، والبابوات الـرومان الراقدين هناك، وقد يكون هذا صحيحـاً لأنه في أيامي جـاء بعض السـادة من كـاتالونيـاإلى هناك، وخدموا امبراطور القسطنطينيةمقـابل أجر، وعندما غادروا سألوا الامبراطور منحهم قبل كل شيء آثاراً مقدسة، وقد وافق على التماسهم، وفرز عدداً من أجساد القديسين بقدر عددهم، ووقف السادة على بعد، واختـار كل منهم جسداً بدوره، وذلـك وفقاً لمراتبهم، ونال كل واحـد منهم ما استحقه، وكان ذلك جسداً كاملاً لواحد من القديسين، وعادوا جميعاً راضين وإلى بلادهم مسرورين، وأنا لاأتجرأ على قـول المزيد حول التزيينات الأخرى العائدة لهذه الكنيسة، ويعيش في هذه المدينة امبراطور الاغـريق بشكل دائم، والذي كـان امبراطوراً في أيامـي(أندرونيكوس الثـالث) كـان قـد اتخذ قـرينة له أخت الدوق هنـري أوف برونزوك Brunswick، وبعد وفـاتها تزوج من ابنة كونت سـافوي، ويسكن في هذه المدينة أيضـاً بطريرك الاغريـق، الذي يطيعه الاغـريق في كل شيء، مثلما يطيع اللاتين البابا، كما أنهم لايقيمون أدنـى تقدير للأب الرسولي،

كما أنهم لايهتمون بأي من أوامره، باستثناء مايرضيهم أنفسهم، فمنذ أن انفصل الاغريق عن كنيسة روما من خلال الهرطقة، أقدموا على اختيار هذا البطريرك، وهم يطيعونه مثل إطاعة البابا حتى هذا اليوم، وفي القسطنطينية تباع جميع الأشياء مثل: الخبز، واللحم، والسمك، ومايشبه ذلك بأزهد الأسعار، ذلك أن ما من شيء غالي الثمن فيها سوى النبيذ، الذي يجلب إليها من نابولي، ويسكن في هذه المدينة عدد من الشعوب المختلفة، ويوجد هناك أيضاً كثيراً من المناخ البارد، ولهذا السبب يجري تمليح اللحم هناك، الأمر الذي لايمكن القيام به في أي مكان آخر في آسيا بسبب الحر، وهناك أيضاً أسماك التربوت حيث تصطاد وتجفف، وتصدر من هناك إلى جميع أجزاء آسيا، ويوجد في هذه المدينة أيضاً قصر الامبراطور القديم، الذي فيه بعض الكؤوس الحجرية التي تمتلىء من قبل نفسها بالماء، ثم تفرغ نفسها مباشرة، ثم تملأ نفسها ومن ثم تصبح فارغة، وبالإضافة إلى هذا هناك كثيراً من اللآلىء الممتازة، بكميات كبيرة، وهي رخيصة جداً، وينبغي أن يعرف القارىء أن امبراطور الاغريق والشعب الاغريقي حكموا فيما مضى جميع آسيا، أي كل من آسيا الصغرى، وآسيا الكبرى، وتملكوها، لكن منذ أن انشقوا عن كنيسة روما بالهرطقة، فقدوا تقريباً جميع هذه المناطق،لأن حكماً قد صدر بحقهم قضى أن كل واحد يأخذ أيّا منهم أسيراً، يمكنه قانونياً أن يبيعه وكأنه من السائمة، وكل لاتيني يمكنه أن يستولي على أرض هناك، يمكنه أن يتمسك بها حتى يعودوا إلى صدر الكنيسة الأم ويتحولوا، ولهذا السبب فقدوا أجزاء واسعة من أراضيهم وممالكهم، وذلك حسبما سأحدثكم فيما بعد.

٣ — *الطريق(إلى الأرض المقدسة) براً، ومملكة الغرب*

وفي عودة إلى موضوعي ، وتاركاً القسطنطينية، التي يمكن للانسان أن يذهب منها إلى الأرض المقدسة براً، وذلك إذا كان الترحال من بين

الأتراك والتتار آمناً، ولاتوجد معيقات أخرى، هذا وعلى المسافر بحراً من القسطنطينية أن يعبر إلى مملكة قبرص، وذلك حسبما سأخبركم فيما بعد، ويقود الطريق الذي أتيت على ذكره، إذا ما اتجه الانسان براً دوماً نحو الشمال، إلى القسطنطينية، ومن القسطنطينية، إذا ما توفر الأمن والتسهيلات، يمكن للانسان أن يسافر براً إلى أي جزء من أجزاء العالم كله، وذلك باتجاه الجنوب، وعلى هذا لن تكون هناك حاجة للذهاب بوساطة البحر.

وبطريقة مماثلة، يمكن للانسان أن يكون قادراً على الذهاب(إلى الأرض المقدسة) من خلال الشمال الأفريقي، والمملكة الغربية، ومملكة غرناطة، غير أن المغاربة لن يسمحوا للمسيحيين بالمرور من ديارهم، مع أن المسلمين الذين يسكنون في إسبانيا وأراغون يرتحلون عبر هذا الطريق عندما يودون زيارة مقامات نبيهم محمد(ﷺ)، لكن المسيحيين لايمكنهم العبور من خلال هاتين المملكتين، لأن مملكتي المغرب وغرناطة قويتان جداً وغنيتان، وهما مسكونتان من قبل مسلمين لايكترثون بالسلطان، وهم على خلاف دائم مع ملك إسبانيا، ويقدمون العون دائماً إلى ملك المغرب، الذي هو مسلم، والذي تقوم مملكته على حدود إسبانيا، أي على ذلك الجزء من البحر الممتد في مواجهة ملك إسبانيا، وعليك أن تعرف أن مملكة المسلمين على ذلك الطرف من البحر ما تزال قائمة، وهي معروفة باسم مملكة الغرب، وهي فائقة القوة، وقائمة على الحدود الاسبانية، كما تقدم القول، وهي تمتلك عدداً من المدن العظيمة وأماكن حصينة، وبلدات، والذي أعتقده أن ملك الغرب أكثر قوة من السلطان، لأنه إذا ما توفرت حاجة، يمكنه أن يحشد في نصف ساعة أكثر من مائة ألف رجل مسلح قوي، وهو الذي تصارع ومايزال يتصارع حتى هذا اليوم مع ملوك إسبانيا وكاستيل، كما غالباً سمعت وعرفت، ومثل هذا في جميع مدن أراغون وبلداتها

مسلمون ساكنون فيها، وفي كل واحدة من المدن والبلدات يمتلك الملك قلعة عالية مشحونة بالجند الذين يبقون متيقظين، حتى لايقوم المسلمون بإثارة أي مشكلة أو القيام بعمل مضر، وعندما يرغب حاكم أية بلدة في إرغام المسلمين على تنفيذ أي عمل، يعطيهم خنازير لإطعامهم وسوقهم إلى المرعى، وهو أمر محرم في شريعتهم، وبهذه الوسيلة وبوسائل أخرى كان يرغم المسلمين على تنفيذ أوامره.

٤ — *بلاد ساحل الجزائر وباجة*

بلاد ساحل الجزائرهي بلاد معظمها رمال وصحراء، والذين يسكنون فيها هم أثيوبيون سود، ويوجد على مقربة من بلاد ساحل الجزائر بلاد أخرى صغيرة، ليست أكثر من ستة أميال(ألمانية؟) من حيث الاتساع، اسمها باجة، حيث يجري تربية القردة وامساكها، وجميع السكان هناك لهم وجوه مثل وجوه القردة، ويشمل ذلك كل من النساء والرجال، وهم يحتفظون بالقردة في بيوتهم، مثلما يفعل الذين هم من هذه المناطق باحتفاظهم بالكلاب والطيور، وينتجون من هذه القردة، قردة صغار، يتولون بيعها، وبثمنها ينفقون على عيشهم، ولهذا السبب يقومون بخصي صغار القردة حتى لايجري تربيتها في مكان آخر، ومع هذا فإنني غالباً ما رأيت قردة صغار في مناطق مختلفة، وينبغي أن نعرف أن البحر المتوسط يتدفق إلى المحيط، فيما بين إسبانيا والمغرب، ويأتي تدفقه خلال مضيق لايتجاوز عرضه ربع ميل(الزقاق)، ولضيقه تقف على ضفته هنا امرأة مسيحية، وتقف على الضفة المقابلة امرأة كافرة، تقومان بغسل ملابسهما، وتتشاتمان وتتخاصم إحداهن مع الأخرى، ويطلق على هذا المضيق البحري من قبل السكان المحليين اسم مضيق جبل طارق، أو مضيق المغرب.

وبعدما يعبر الانسان هذا المضيق الصغير يمكنه الذهاب إلى جميع أنحاء الدنيا،براً، باتجاه الجنوب، وكما قلنا من قبل لاتوجد معيقات على

هذا الطريق، وبعبور هذا المضيق البحري يقدم كل من ملكي الغرب، وغرناطة لتقديم المساعدة إلى ملك الغرب، لأنهما يعبرانه بكل سهولة، ومثلما يصب البحر المتوسط في المحيط من خلال هذا المضيق القائم فيما بين إسبانيا والمغرب، يقوم هذا المتوسط بالطريقة نفسها فيصب في بحر بنطش، قرب أسوار القسطنطينية، وذلك من خلال مضيق اسمه ذراع القديس جورج(البوسفور)، الذي بالعرض نفسه، مثل المضيق المتقدم الذكر، وينبغي أن يكون معلوماً، أنه لاتوجد أية مناطق جافة من الأرض في بحر بنطش ولا أحد يعرف بوجود مثل ذلك، إلاّ باستثناء جزيرة واحدة إسمها خيرسون Cherson ، إليها نُفي البابا القديس كليمنت، وقد أُغرق بالبحر نفسه، ولقد قرأنا أنه يوجد في هذا البحر هيكل رخامي ينفتح إليه ممر في يوم عيده، لكن في هذه الأيام لاينفتح، إنما في الأيام الغوابر كان كذلك، ذلك أن جسد القديس كليمنت راقد في روما، والجزيرة مهجورة، وعلى كل حال يجري منها تصدير أجمل الرخام وأفخره، [وهناك بحر آخر باتجاه الشرق وراء مدينة غارا Gara ، التي هي بأيدي تتار بلاد الكومان، واسم هذا البحر «بحر الخزر»، وهذا البحر غير متصل بكل من المحيط، أو البحر المتوسط، أو بحر بنطش بوساطة أي مضيق مرئي، ويقول بعضهم بأنه متصل بالبحرين الآخرين، ويفصل ذراع القديس جورج الذي تحدثت عنه أوربا عن آسية الصغرى، التي هي مقاطعة من آسيا العظمى، وغالباً ما يطلق على هذا المضيق اسم فم القسطنطينية، لأنه هناك على الشاطىء الأوربي، تقوم مدينة القسطنطينية الجليلة، التي تعرف أيضاً باسم روما الجديدة، كما تقدم القول].

٥ — *البحر المتوسط*

البحر المتوسط هو البحر الذي يبحر الانسان عبره إلى الأرض المقدسة، ويطلق عليه اسم البحر المتوسط لأنه يمتد نحو شرقي آسيا،

حيث يشكل حـدودها، وأيضـاً إلى غـرب وشمالي أوربا، وإلى الجنوب الأفـريقي، حيث تنفصل بلدانهم عن بعضهـا بوسـاطة مضـائقه، ولقـد سمعت بأن أفريقيا وأوربا تنفصـلان عن بعضهما بوساطة نهر اسمه اندا Inda ، الذي فيـه أُغـرق الأربعين شهيـداً،ويمـر هذا النهـر نفسـه بمدينة اسمهـا بتريس Biterris وقد أطلق عليهـا هذا الاسم لأنها قائمة فيما بين برين، والمعني بذلك: أفريقيا، وأوربا، ويطلق على أسقفها اسم أسقف بتريس، ولقـد قـام الفلاسفـة الرومـان الذين قسموا العـالم ووزعـوه بين الـرومـان، ببناء هذه المدينة منذ أيـام خلت، وذلك في أيام هانيبال، وقاموا أيضاً ببناء مدينة أخرى إلى جانبها اسمها نربونة، ويطلق على أسقفهـا اسم أسقـف نربونه، وكثيراً مـا زرت تلـك البـلاد، ولكن دعونا نعـود إلى موضـوعي، حيث عليك أن تعرف بأن البحـر المتوسط تتحـرك مياهه نحـو الداخل والخارج، وذلك حسبما سمعت، وفيه مـد وجـزر، وبلا شك هو لايعـرف الاستقـرار، كما هو واضح بالرؤية، فيما بين كالبيرا(قلورية) وصقلية، ففيما بينهما يتدفـق البحر بشدة بلغت حداً، أن ما من بحـار يجرؤ على الابحار هناك من دون مـرشد مختص، ومثلما يمكن رؤية مثل هذا بوضوح في أمـاكن أخرى كثيرة، وينبغي أن نعرف أن البحـر المتوسط ليـس له العرض نفسـه في جميع الأجـزاء، بل هو في بعض المواضع أعـرض وفي بعضها أضيق من أمـاكن أخرى، وأعـرض مكان فيـه من الغـرب إلى الشرق هو الممتـد من اسبـانيـا إلى غـاليشيـا، وقطلونيا وجزئياً إلى بروفـانس، وأضيق مكان فيه من الغرب إلى الشرق هو الممتد من كالبيرا، وأبوليا، ونابولي، والبندقية، وأحواز هذه الأماكن.

٦ — *مخاطر البحر المتنوعة*

وهكذا يتـوجب على الذي يود السفـر إلى الأرض المقـدسة بحـراً أن يركب سفينة من أية منطقـة أو مـدينة، أو ميناء، يقع اختياره عليـه،وأنا أدع هذه المسألة إلى حـريةاختياره، أمـا بالنسبة إلى الطعـام، فليأخذ معـه

بقـدر مـايستطيع، أو بقـدر مـالديـه، وعلى العمـوم اعتـاد الناس الذين يبحـرون من الغـرب إلى الشرق على التـزود بأطعمـة تكفي لمدة خمسين يومـاً، على أنهم عندما يبحـرون من الشرق إلى الغـرب قد اعتـادوا على التـزود بأطعمة تكفي لمدة مـائـة يوم، لأن السفينة تطير وهي قادمـة من الغـرب إلى الشرق بريح طيبة، حيـث أنها تقطع في الليل مسافـات أكبر منها في النهار، حيث أنها تقطع مسافة خمسـة عشر ميلاً في كل ساعة من اليـوم، وسبب هذا أن البـلاد الغـربيـة باردة جـداً، وكثيرة الرياح، وفي المقابل فإن البـلاد الشرقية حارة جداً، وهي جميعـاً بلا رياح، وبناء عليه يبحر الانسان ببطء أكثر على سطح البحر عندما يكون عائداً، منه عندما يكون ذاهباً إلى هناك، وخاصـة أن السفن الكبيرة الذاهبة من الغرب إلى الشرق اعتـادت على العـودة في شهـري أيلول وتشرين أول، وتبـدأ الغـلايين والمراكب من هذا النوع بالاقـلاع من هناك شروعاً من شهـر آب، عندما يكون البحـر هادئاً، لأن ما من مـركب يمكنه أن يعبر البحر في تشرين الثاني، وكانون الأول، وكانون الثاني، بسبب العواصف، وعلى كل حـال مـا من مـركب يستطيع — إلا بالنـادر — العـودة من دون تعب، ورعب، وخوف، وانزعـاج، وحول هذا أنا متأكد وعـارف تماماً، لأنني عشت مـراراً ورأيت نفسي وسـط العـواصف العنيفـة في البحـر، وهي عواصف يصعب وصفها كلياً[لأن ما من إنسان يمكنه أن يصف ذلك تمامـاً، كما أن مـا من إنسـان يمكنه أن يصـدق بوجـود مثل هذه العـواصف الشديدة جـداً في البحـر]، وفي الحقيقة إنني أعـرف أن ذلك صحيحاً، لأن ما من صخرة أو رمل في قاع البحر إلاّ ويتحرك، إذا كان قـابلاً للتحرك، وذلك عندمـا يثور البحـر ويتقاذف هكذا، وقـد تبرهن على صحة هذا الأمر بين الجزر، حيث يكون البحر ضيقاً، وحيث يكون هنالك عـدداً هائلاً من الصخـور يجري قذفهـا من شاطىء إلى شـاطىء أثناء العواصف، وحـدث في إحدى المرات أن رجلاً كان مسـافراً قرب الساحل الأرمني بوساطة غليون، فثـارت فجأة عاصفة في الليل، بسببها

جرى فقـدان ثلاثة رجال، ووجدوا في الصباح أن الغليـون كان مغطى برمل سماكتـه أكثـر من ذراع، مما رمـاه البحر أثناء هيـاجـه، وفيما يخص برعب البحـر ومخاوفـه التي تنشأ من أسباب متنوعـة، رأيت من المفيـد الحديث بعض الشيء حولهم.

٧ — *الخطر الذي اسمه غولف* Gulph

وتصدر المخاوف أولاً عن الريـاح الطبيعية، وذلك كما سلف القول، ومثل ذلك عن الرياح الشديدة جداً، التي يطلق البحارة عليها في البحر اسم«غـولف»، وهي التي تسير من الفجـوات في الجبـال، وهي لاتؤذي السفن مـالم تكن قـريبـة جـداً، ففي سنة ١٣٤١ لتجسيـد ربنا، وفي ليلة أحد، حيث كان يجري غناء Laetare Jerusalem (الأحد الرابع من الصـوم الكبير)، وكنا وقتهـا مبحـرين من الشرق، وكـان لدينا ريح شرقيـة جيدة جـداً، وبناء عليه انطلقت السفينة بأشرعـة ستة منشـورة، تطير طوال الليل، لكن حـدث عند الصبـاح المبكر، وكنا مبحرين نحـو جبال أضـاليا، وكـان البحارة جميعـاً نيام، أن قـذف هذا الغولـف نفسه السفينة مع أشرعتهـا وضربها بعنف على جانبهـا، ودفعهـا نحو البحـر، بحيث أن جميع الأشرعـة تبللت، وسارت السفينة مائلـة على طرفها إلى مسافـة طويلة، ولو أن السفينة دفعت أكثر وجنحت على طرفهـا، لغرقنا جميعاً، وقطعنا على كـل حال جميع الحبال، وربطنا جميـع الأشرعة ، حتى وازنت السفينة نفسهـا بعض الشيء، وهكذا نجونا بفضل نعمـة الرب من ذلك الخطر العظيم.

٨ — *الخطر الذي اسمه غروب* Grup

وهناك أيضـاً مخاطر أخـرى في البحر، تصـدر عن رياح غير طبيعيـة، ويطلق عليهـا البحـارة اسم«غـروب»، وهي تنشأ عن التقـاء ريحين، وبسهولة يراها الـرحالة قادمـة، هذا ولقد ارتعبت كثيراً منهـا حتى بعد

انتهـاء رحلتي، فضـلاً عن هذا هناك مخاوف أخـرى في البحـر، من القـرصـان أو لصـوص البحـر، الذين يهاجمون واحـدة من السفن مثلما يهاجم المقاتلون قلعـة من القلاع، لكن هذا الرعب تناقص كثيراً منذ أن اختارت مدينة جنوا لنفسها دوجاً.

٩ — *الرعب من الأماكن القليلة العمق*

وهناك أيضاً مخاوف أخرى في البحر، يدعـوها البحارة باسم الأماكن الضحلة، وبالنسبـة لهذا الموضوع عليك أن تعلم أن البحـر ليس بالعمق نفسه في كل مكان منه، لأنه يوجد في البحـر جبال، وصخور، ونباتات، وحشائش خضراء مثلما هو موجود على اليابسة، وهذه الجبال والصخور هي عـالية في بعض الأمـاكن، ومنخفضـة في أماكن أخـرى، ففي بعض الأماكن نادراً ما تكـون الصخور والجبال مغطاة بشبر أو ذراع من الماء، ولهذا السبب مـا من أحـد يتجـرأ على الابحـار جنوباً باتجاه بلاد البربر، لوجـود صخـور كثيرة، وأماكـن ضحلة قليلة العمق مغطاة بالماء، وهذه المخـاطر مرعبـة بشكل كبير في البحـر، لأنه في مثل هذه الأوقـات يتم العثور على كتل من أنواع النباتات مرمية على الشاطىء، وكذلك بعض المرجان، مما تقـرص فروعـه عندما تقـذف من قاع البحـر، لكنها تصقل بعـد ذلك مـن قبل معلمي الحرف، والمرجـان في البـدايـة هو أبيض ويقـرص، لكن جاذبيـة الشمس وأشعتها على قعـر البحر، حيث ينمـو، تجعله أحمر، والمرجان ينمو على شكل نبتة صغيرة لها ثمرة واحدة عالية، وعندمـا يجري رمي المرجـان هكذا بكميات كبيرة وقـذفهم من البحـر، يقـوم الناس بجمعهم وبيعهم وهم مايزالون يقـرصون، ولقـد رأيت في أحد البيـوت من المرجان أكثر ممـا يستطيع خمسين حصاناً حمله، ولاأتجرأ أن أقول المزيد.

١٠ — المخاوف من السمك

ومثل هذا يوجد في البحر مخاوف أخرى، نادراً ما تقع إلاّ للسفن الصغيرة، والمعني بهذا المخاوف من الأسماك الكبار، وحول هذه الأسماك عليك أن تعرف سمكة خاصة يدعوها الاغريق باسم ترويا Troya البحر، ومعنى هذا الاسم أفعى البحر،وهي ينبغي أن تخاف كثيراً من قبل المراكب الصغيرة، لأن هذه نادراً — أو مطلقاً — ما تسبب أي أذى للسفن الكبيرة، ما لم يكن مضغوط عليها بسبب الجوع، وفي الحقيقة إذا ما أعطاها البحارة خبزاً تفارق وهي راضية، لكنها إذا لم تفارق، فوقتها يمكن أن تكون مخيفة، ومن الممكن جعلها تهرب برؤية إنسان غاضب وله وجه متجهم، وعلى كل حال على الانسان أن يكون على درجة عالية من الحذر، عندما ينظر إلى السمكة هكذا، وأن لايكون خائفاً منها، بل عليه أن يحدق بها بوجه جريء ومظهر مرعب، لأن السمكة إذا ما رأت الانسان خائفاً فإنها لن تفارق، بل تقوم بعضّ السفينة وتمزيقها بقدر ما تستطيع، وعلى كل حال، إذا ما نظر الانسان بجرأة، وبتوحش نحو السمكة مع ملامح وجه غاضب، فإن السمكة تشعر بالرعب وتغادر وتبتعد عن السفينة، ولقد حدثني بحار متميز جداً، أنه عندما كان شاباً، واجه الرعب مع هذه السمكة في مركب صغير، وكان معه في السفينة شاب اعتقد بنفسه أنه فائق الشجاعة وحاد، وبناء عليه عندما قابل السمكة لم يعطها خبزاً، بسبب الشجاعة التي اعتقد أنه يمتلكها، وأنزل نفسه بوساطة حبل من السفينة إلى الماء، ليحدق بالسمكة بوجه غاضب، كما هي العادة، غير أنه عندما رأى السمكة ارتعب على الفور وصرخ لرفاقه ليسحبوه ويرفعوه بوساطة الحبل، ولدى رؤية السمكة الرجل الخائف، قفزت من الماء وهو يسحب نحو الأعلى، وبعضة واحدة التهمت نصف الرجل من أمعائه نحو الأسفل، ومن ثم ابتعدت عن السفينة، ومع هذا قد قيل بأن هذه

السمكة ليست طويلة بقدر ما يستطيع أن يرمي إنسان حجرة، كما أنها ليست عريضة لكن رأسها ضخم جداً وعريض، وكل الأذى الذي تلحقه بالسفن تلحقه بعضها وبتمزيقها.

وسمعت أيضاً من بحار آخر صادق جداً، كان يعرف جميع ممرات البحر تقريباً، وهو أيضاً كان قد تعرض إلى عدد لايحصى من المخاوف المرعبة، من مختلف الأنواع في البحر، وقد أخبرني هذا الرجل نفسه أنه قد أرغم بوساطة ريح معاكسة، على الابحار في أماكن كان الابحار فيها مرعب جداً، وذلك بسبب الصخور، وقرب قاع الأرض التي كانت بالكاد مغطاة بالماء، وعندما لم يكن بعيداً عن مثل هذه الأماكن، لم يكن قادراً على ايجاد قعر عميق على بعد عشرة آلاف ذراع، وعندما كانت السفينة مبحرة في هذه الأماكن مع أعظم قدر ممكن من الخوف والخطر، حدث أن السفينة مرت على سمكة اسمها عند الفرنسيين Melar ، كانت مختبئة بين الصخور هناك، وعندما شعرت السمكة أن السفينة مقبلة نحوها، تصورت أنها وحش عظيم من الممكن ابتلاعه، وفتحت فمها، وأعطت السفينة عضة كبيرة جداً، ومع أن السفينة كانت محملة كثيراً، فقد دفعت إلى الخلف مسافة كبيرة. واستفاق الناس، الذين كانوا على ظهرها بسبب تلك العضة والصدمة، وعندما أدرك البحار أن السفينة اصطدمت بعقبة لايمكن تجاوزها، صرخ إلى الناس الذين كانوا في السفينة ليصلوا إلى الرب من أجل أرواحهم، وكان قد اعتقد بأنه لم يكن هناك أمل ببقائهم أحياء، حيث كان موقناً بأن السفينة لابد أنها اصطدمت بصخرة عظيمة، وعلى الفور نزل البحارة والخدم التابعين للسفينة إلى قبوها، راغبين في أن يروا المكان الذي خرقت فيه السفينة، فوجدوا أن سن سمكة سميك عريض مثل جذع شجرة، وطوله ثلاثة أذرعة قد خرق السفينة، وقد حاولوا أن ينتزعوا ذلك الجزء من السن بأدوات معدنية، فلم يستطيعوا، فقاموا بقطعه بالمنشار على سوية طرف

السفينة، وليس هنالك من شك أن السفينة كانت ستتحطم لولا أن هذا السن كان حاداً إلى درجة مكنتـه من خرقها بذلك الشكل المدهش، وفي الوقت الذي أتأمل فيـه حول طول وعـرض مثل هذه السمكة، أخبرني البحار نفسه بأن لا أندهش، لأن في البحـر سمكة طولها ميل، وعرضها أربعـة آلاف وستمائـة ميل(ذراع؟) وذلـك في أضيق مكان فيهـا، وهناك أيضاً في بركـة صغيرة لايتجاوز عرضها رميـة سهم توجد سمكة طولها ذراع، وهي غـالباً مـا تصاد، ولقـد رأيت ثلاث سمكات من هذا النوع خـارج سردينيـا، وكانـوا يندفعون خـارج الماء أثناء تنفسهم إلى مسـافـة بعيدة، أكثر مما يستطيع قوس أن يرمي نشـابته، وكانوا يصدرون صراخاً مثل الرعـد، فضـلاً عن هذا، في أيامي، عندمـا كنت قـريبـاً من جـزيرة طرطوس، كـــانت هناك سمكة، حينما أخـــذت بـالاصطدام بسمكات أصغر رمت بنفسها على اليابسة، وساقـت أمامها موجة عظيمة من الماء، وعندمـا عادت الميـاه إلى البحـر، بقيت السمكة على اليابسـة، وأطعمت جميع السكان هناك في تلك المناطق بلحمها ودهنهـا، لكن ليس بعد أمد طويل، عندما ازدادت درجة حرارة الشمس، تسممت المنطقة كلها بنتن السمكة عنـدمـــا تعفنـت، ولمدة طويلة كـــان من الممكن رؤيـة الهيكل العظمي للسمكة عن بعد، مثل بيـت كبير، وأطراف منه تحركها الرياح، وبعـد بعض الوقت تحطم هذا الهيكل ونقلتـه العواصف والزوابع نحـو الأسفل ولقد سمعت مـن كثير من الناس من أهل المعرفـة أنه يوجد في البحر حوت طويل جداً.

١١ — *أنواع الأسماك*

ومثل هـذا يوجـــد في البحـــر كثير من أنواع السمك، مـن مختلف الأشكال، من الكبير والصغير، بعضهـــا لها ألوان واحـــدة، ومظهـــر، وشكل، وترتيب، وبعضها بأجنحة، وبعضها بلا أجنحة، ولايمكن فهم طبيعـــة هؤلاء جميعـاً مـن قبل العقل البشري، وبين هذه الأنواع جميعـــاً

هناك أنواع بالفعل مدهشة جداً،يرفعن أنفسهن مسافة طويلة جداً خارج الماء، ويمكن لبعضهن أن يجرين طائرات على مستوى وجه الماء لمسافات طويلة مثل الخفاشات، لكنني لست متأكداً كم يستطعن أن يطرن، وإلى أية مسافة.

ولقد سألت بإلحاح البحارة العارفين: من أين تأتي هذه الأسماك؟ وقد أجابوني أنه ينمو على شاطىء البحر في إنكلترا وايرلندا أشجار جميلة جداً تحمل فاكهة تشبه التفاح، ويعيش في هذه التفاحات حشرات، وعندما تنضج التفاحات، يسقطن على الأرض، فيتحطمن بعملية السقوط هذه، وتطير من داخلها حشرات، لأن لها أجنحة مثل النحل، والحشرات اللائي يلمسن الأرض أولاً يغدون مخلوقات هوائية، ويطرن هنا وهناك مع الطيور السماوية الأخرى، لكن ما أن تلمس هذه المخلوقات الماء حتى يتحولن إلى مخلوقات مائية ويسبحن مثل الأسماك، غير أنهن يجلن في أماكن أخرى ويدربن أنفسهن على الطيران، لكن يبقى هل يخلقن هكذا على الأشجار، إنني لاأعرف أكثر مما سمعته في هذه الحكاية، إنما هن يؤكلن مثل الأسماك، ويرون وهن طائرات من قبل الناس الذين يرتحلون في البحر.

١٢ — *هجرة الطيور*

وعليك أن تعرف أنه في موسم محدد، تقوم أعداد عظيمة من الطيور من جميع الأنواع، من كبير وصغير، بالارتحال عبر البحر من الغرب إلى الشرق، وتعود ثانية، وبشكل خاص طيور: السنونو، والسلوى والغرنوق، وأعداد لاتحصى من الطيور من جميع الأنواع والألوان، سواء ما كان منها كبيراً أو صغيراً، الله وحده يعرف أسماءها وأعدادها، وهم يطيرون على طريقهم من جزيرة إلى جزيرة، ويصبحوا ليسوا أكثر من عظم وريش، ويبلغ بهم حد الانهاك إلى عدم الاهتمام بالحجارة والنشاب، وقد أمسكت بعضاً من طيور السنونو ... على ظهر السفينة،

لكن سرعان ما ماتوا، ومع هذا إنني لم أر مطلقاً في جميع المناطق التي كنت فيها فيما وراء البحار طائر اللقلق، لكن رأيت مرة في دير للموارنة لقلقاً، عددته مدهشاً في حجمه، ولقد سُئلت دوماً عما إذا كانت طيور السنونو تقضي الشتاء في بلادي، فأجبت: لا، إنما بالنسبة لبلادي، تأتي هذه الطيور إليها في آذار، إنما وهذه الطيور هناك ما من أحد يعرف من أين جاءت، وقد حدث في مرة من المرات، أنه في واحد من قصور أحد السادة الكبار، كان الحاجب نائماً فوق منضدة عندما جاء اثنان من طيور السنونو، وهما يتخاصمان حول عش، ووصلا في التخاصم إلى حد أنهما أخذا بعضّ بعضهما بعضاً، وهكذا سقط كلاهما على وجهه وهو نائم، فأمسك بهما بشدة، ثم وضع حول كل واحد منهما طوقاً، وقد كانا يأتيان في كل سنة ويعودان إلى عشهما مع هذين الطوقين نفسيهما، وبإمكاني أن أروي حكايات طويلة جداً حول أنواع أخرى من الطيور، من الصغير والكبير، ممن يقوم بعبور البحر في أوقاتهم الخاصة، إنما لابد لي من العودة إلى موضوعي، وأن لاأكتب المزيد حول مثل هذه المسائل.

١٣ — *الرحلة عبر البحر — طروادة والجزر*

وعلى هذا كل من يود زيارة الأرض المقدسة، أو أي مكان من بلاد ما وراء البحار، لابد له من السفر إلى هناك بسفينة أو بغليون، وإذا ما سافر في سفينة، فإنه وقتها يجوز مباشرة عبر البحر، دون أن يتوقف في أي ميناء مالم يكن مرغماً على فعل ذلك، بسبب رياح مضادة، أو طلباً للأطعمة، أو وجود قضية ضرورية جداً، وهكذا فإنه يخلّف بلاد الجزائر على يمينه باتجاه الجنوب، ويترك بلاد الاغريق على يساره باتجاه الشمال، ويحصل على مشهد عن بعد لكثير من الجزر الشهيرة من ذلك: كورسيكا، وسردينيا، وصقلية، ومالطة، وغوي Goy ، وسكارب Scarpe، وكريت ورودس، وجزر أخرى كثيرة، صغيرة وكبيرة، لكنه إذا ما أراد العبور في غليون، عليك أن تعرف أن الغليون هو نوع

من المراكب المستطيلة، التي ترتحل من شاطىء إلى آخر، وتبقى مبحرة على مقربة من الشاطىء، وتتوقف في مرسى على الشاطىء في الليل، ولها ستين مقعداً على كل جانب، ولكل مقعد ثلاثة من البحارة معهم ثلاثة مجاذيف، ورامي قوس واحد، وعلى ظهر الغليون يجري دوماً أكل أطعمة جديدة، وهذا أمر لايمكن القيام به على ظهر السفينة، وعندما يكون الغليون على هذه الصورة على محاذاة الشاطىء، يمكن للانسان أن يرى مالايحصى من الأماكن الفائقة الجمال، والمدن، والبلدات، والقلاع، وخاصة تلك الأماكن كلها التي يمكن رؤيتها من السفينة عن بعد، فهي الآن تشاهد من خلال الغليون عن قرب، وهي تمر أمام العين دقيقة دقيقة، وعلى هذا، من الممكن القول تقريباً، أنه في الغليون من الممكن رؤية شواطىء ما حول الجزء الشمالي من العالم، وذلك كما سنرى فيما بعد، وأما والانسان مسافر هكذا في غليون من مكان إلى مكان آخر، ومن ميناء إلى مياء آخر، يمكنه الوصول الى القسطنطينية التي كنت قد حدثتكم عنها، وبعد مغادرة تلك المدينة، يصل الانسان وهو نازل على محاذاة ساحل آسيا الصغرى إلى المكان الذي قامت فيه فيما مضى مدينة طروادة الجليلة جداً، والتي لم يبق منها أثر يمكن رؤيته، اللهم إلا باستثناء بعض الأساسات تحت ماء البحر، وكذلك في بعض الأماكن بعض الحجارة القليلة وبعض الأعمدة الرخامية المدفونة في الأرض، التي عندما يعثر عليها يجري نقلها وأخذها إلى أماكن أخرى، وفي هذا المقام عليك أن تعرف، أنه لايوجد في البندقية عمود حجري أو أي حجرة جيدة القطع والصنعة لم تكن قد جلبت إليها من طروادة، هذا وقد بني إلى جانب المكان الذي قامت فيه طروادة فيما مضى مدينة صغيرة، اسمها أيوس يامـوس Ayos Yamos، وذلك باللغة الاغريقية، وكانت مدينة طروادة قائمة على شاطىء البحر في منطقة اسمها فريجيا، وهي ليست بعيدة عن خلقدونية، لكن كما يبدو لم تملك ميناء جيداً، وعندما يسافر الانسان في غليون من طروادة يرى شواطىء

لومبارديا، وشمبانيا، وكلبيرا، وأبوليا، ويصل الانسان إلى جزيرة اسمها كورسيكا، وحدث أنه قرب هذه الجزيرة جرى اغراق سفينة القديس بولس الرسول، وذلك بعدما قدم التماساً إلى قيصر، بعد ما جرى اعتقاله في اليهودية، وهناك أيضاً، حدث في المساء، عندما كان جالساً أمام النار في النزل جرى قرصه من قبل أفعى خبيثة، ونجا دون أن يصاب بأذى، وذلك كما نقرأ في أعمال الرسل، ومازال يسكن في تلك الجزيرة أناس يتفاخرون بأنهم من أسرة صاحب النزل، الذي نزل في نزله ما نزل من هذه الأشياء بالقديس بولس، وهؤلاء الناس قد منحوا القدرة على الشفاء ببصاقهم أي واحد جرى قرصه من قبل أفعى أو صلّ، وعندما يريدون ممارسة هذه القدرة مع أي انسان، يأخذون أولاً كاساً مليئاً من الخمرة، ويشربون منها أولاً ثم يضعون فيها كمية من البصاق، وإذا ما كان الذي أعطيت الكأس له قد رفضتها نفسه وأصيب بالغثيان، يمزجون تربة مع الخمرة، ويعطونها إلى المحتاج إليها، حيث يتلقى هذه القدرة، أو النعمة وهو يقول: «خذ ياهذا القدرة والنعمة التي أضفيت علينا من قبل الرب وعلى أولادنا، تشريفاً لبولس الرسول، الأمر الذي نمنحك إياه ونضفيه عليك باسمه، حتى يكون بمقدورك إذا ما قرصت من قبل أفعى أو صلّ، أو من قبل أي من الهوام السامة والمؤذية، أن تشفي نفسك ببصاقك، وتعالجها، إنما دون أن تعالج شخصاً آخر، ونقوم بمنحك هذا من دون أخذ أية مكافأة مقابل ذلك، ونحن نعطيك ذلك من أجل الرب، باسم الآب والابن وروح القدس، آمين»، وإذا ما قام أي انسان بمعالجة انسان آخر إلى جانب نفسه يفقد على الفور قدرته، إنما في الوقت نفسه تفيد الذي تولى معالجته، ويبحر الانسان من جزيرة كورسيكا هذه إلى سردينية، وهي جزيرة جليلة جداً، ذات تربة جيدة وخصبة، مليئة بالقطعان، والسائمة، لكنها من دون خمرة، حيث تجلب إليها من أماكن أخرى، ومن المقرر أن جسد القديس اوغسطين يرقد في هذه الجزيرة، لكن (لوتبراند Luitprand)نقله

(في سنة ٧٢٥) إلى بافيا Pavia ، وقد ولد في هـذه الجزيرة أيضاً القـديس مكاريـوس الذي كـان بارزاً جـداً بين النسـاك، وكـانت هذه الجزيرة تابعـة للبيازنة، لكن ملك أراغـون انتـزعها منهم بالقـوة، وهي لاتحتوي على كثير من المدن، بل فيها مدينة واحـدة اسمها قلعة دي كال Cal، وإلى جـانب هذه المدينة قلعة اسمهـا بونايـر Bonayr، وكنا في يوم الصعـود من سنة ١٣٤١، قد دفعنـا بقوة نحـو هذه الجزيرة، وذلك من قبل ريح عاصفة شديدة وقـاسية ثارت بشكل مفاجىء، وكنا وقتها في سفينة كبيرة جـداً، وإثر هذا اقتضى منا الأمـر خمسة عشر يومـاً حتى عوضنا المسـافة التي كنا قد سرناها قبل العـاصفة منذ الساعة السـادسة حتى وقت العشـاء، ولايتذكـر الشيـوخ في أيامنا هذه عاصفـة مثل هذه العاصفـة العظيمة في البحـر، وفي الليلة التي دفعنا فيها إلى هنـاك، وجد ثلاث وأربعـون سفينـة أخـرى كبيرة قـد تجمعت هناك، وكـانت مثلنا أنفسنا، قـد دفعت إلى هناك من مختلف أطراف البحـر، وذلك مع عـدد لايحصى من المراكب الأخرى، من الأحجام الصغيرة والكبيرة، وبعضها كان قد رمى بحمولته، وبعضهـا الآخر كان قد تحطم، وبين تلك السفن جميعاً جاءت أعظم سفينة في العـالم من نابل، وكانت محملة بألف برميل من الخمر، وذلك من ذوات الحجم الأكبر من نوعه، مع أكثر من ستمائة رجل ومختلف أنواع التجارات، وكـانت آخذه طريقهـا إلى القسطنطينية، غير أنها صـدت بقوة العـاصفـة وعنفها، وجـزيرة سردينيـا هذه مجاورة لجزيرة أخرى صغيرة اسمهـا سوبر Sauper ، أي أن تقول جزيرة القديس بطرس، حيث يوجـد عليها خيول وحشيـة، وهي صغيرة جداً، وعظيمـة الجمال، ولسرعتهـم من غير الممكن امسـاكهـم، إلاّ من قبل اللصـوص الذين يطلقـون السهـام عليهم ويأكلـونهم من أجل التمتع بلحم الطرائـد، والبحر بين هذه الجزيرة وبروفانـس خطير جداً، ويطلق البحـارة على هـذه المنطقـة اسم خليـج ليـون، ومعنى ذلـك «غضب الأسـد»، لأنه إذا كان من الممكن أن تستطيع سفينة مـا الابحار بسـلام

على ظهر بقيـة البحر، إنها لن تتمكن من عبـور هذا المضيق البحري من دون مـواجهـة عـواصف عظيمـة، ومخاطر، ورعب، ولهذا السبب أطلق على هذا المكان نفســه اسم خليج ليــون، ومن جــزيرة سردينيــة هذه يستطيع الناس الإبحــار إلى جــزيرة صقليــة، وهي بلاد جليلة جــداً، مساحتهـا حوالي الثمانين ميـلاً، وهذه مملكة عظيمة جـداً، وهذه الجزيرة أعظم خصباً من جميع البـلاد المجاورة، لأنه عندمـا يكون هناك انحباس للمطر، وجفاف وقحط في جميع بلدان وأقطار ما وراء البحر، نجد هذه المناطق يجري اطعامها ومساعدتها من قبل صقلية لوحدها.

١٤ — جزيرة صقلية

وفي مملكة صقليـة سبع أسقفيات ومطـرانية واحـدة، مطرانها رئيس أسـاقفـة مـونريال، الذي هو في أيـامي راهب مـاروني، فضـلاً عن هذا تمتلك صقليــة عــدداً كبيراً من المدن الحصينة جــداً والجليلة، والمواقع الحصينة والبلـدات، ولاسيما المدن الأكثــر جمالاً والأعظـم حصـــانة الموجودة على شـاطىء البحر،فكل واحـدة من هذه المدن لها ميناء، ومن هـذه المدن: مسينـا، وبلـرم، وطبرمين، والقنطـرة، ويسكـن في القنطـرة رهبان دومينكان، لديهم صـورة للعذراء مـريم المباركـة في أيام البشارة، وهذه الصـورة يبجلهـا أهل المدينة كثيراً، ومثلهم يفعل الذين يبحـرون على ظهر البحر، لأن مـا من سفينة تعبر من هناك إلاّ وتقف على مسافة محددة لتقــدم التبجيل لهذه الصــورة ولـزيارتها، ويخبرون الانســان— ويعتقـدون بشكل حازم— أن أية سفينـة ستعبر دون تحية هذه الصـورة أو زيارتها، سـوف لن تصل إلى وطنهــا، من دون أن تواجـه عـاصفـة، وواجهت القديسـة أغاثا في مدينة القنطرة الشهادة، وجسـدها كله راقد هناك، وهي محترمــة كثيراً، وتحرس بعنايـة كبيرة، لأنه بفضل محاسنهــا يصنع الرب يومياً كثيراً مـن المعجـزات في جميع أرجـاء صقليـة، وعلى مقـربة من مـدينة القنطرة هذه يقـوم جبل منفـرد عـالي الارتفـاع كثيراً،

ويطلق عليه الذين يسكنون هناك اسم جبل بيل Bel، أي أن تقول الجبل الجميل، ولايتوقف هذا الجبل عن اصدار اللهب والدخان وكأنه فرن ناري، ويقذف صخوراً محترقة بحجم بيت صغير، ويطلق عليها سكان تلك المناطق اسم أحجار الخفاف، وبها يجري صقل الرق للكتابة، وهذه مع المقذوفات الأخرى التي يرمي بها الجبل تتجمع وتتكوم بوساطة الريح، حتى تشكل ما يمكن دعوته جبالاً عظيمة وطويلة، ومن هذا الجبل تدفق نهر النار الذي قرأنا عنه في آلام القديسة أغاثا، حيث قالوا: «وقد أقاموا ظلة حاجزة لإبقاء النار بعيداً»، ومن الممكن رؤية مجرى هذا النهر بوضوح في هذه الأيام، وعلى كل حال لقد تدفق نهر من النار مشابه مراراً منذ أيام القديسة أغاثا، وإلى هذه الأيام نجده يتدفق أحياناً، وفي الحقيقة جرى دمار جزء كبير من صقلية بأنهار النار هذه، وبأحجار الخفاف، التي قذفت من الجبل، لأنه عندما يبرد النهر، تصبح هذه الأحجار قاسية، من غير الممكن تكسيرها بأدوات حديدية أو أية أدوات مهما كان نوعها، ولقد قيل يوجد في هذا الجبل فم الجحيم، وما من شك يوجد بعض الحقيقة في هذه الحكاية، فلقد تبرهن وتقرر بوساطة عدد من الأصوات، والمعجزات، والأمثلة في اليوم الحاضر، وفي التواريخ القديمة للمملكة، أنه في أي وقت وجدت فيه أية معارك كبيرة، في أي مكان، يرسل الجبل نفسه اللهب عالياً حتى عنان السماء نفسها، وبناء عليه فإن الذين يسكنون صقلية يعرفون أن هناك معارك حقيقية يجري القتال فيها في بعض أقطار العالم.

ولقد أخبرني راهب ماروني، قد سكن لوقت طويل في جزيرة صقلية، أن فيما لديه من معلومات حدث أنه عندما كان الامبراطور هنري [السابع]، صاحب الذكرى الطيبة والبيازنة يقاتلان ضد الملك روبرت في جبل كاشيم Cachym [سنة ١٣١٥]، وهي الحرب التي قتل فيها أخو الملك روبرت، وهو مدفون حتى هذا اليوم في بيزا تحت

ضريح الامبراطور المتقدم الذكر، ففي تلك الليلة التهب هذا الجبل، وكان مضيئاً طوال ليلة المعركة إلى حد أن رهبان مسينا، الواقعة على مسافة عشرين ميلاً عن هذا الجبل، قد قرأوا نصوص قداسات المساء لديهم على ضوء ذلك اللهب.

وقد أعلن أن الشيء نفسه قد وقع بالذات عندما كانت هناك حرب بين الفلورنسيين والبيازنة في جبال الألب، وقد حدثني هذا الراهب بكثير من الحكايات المدهشة حول هذا الجبل، تحتاج إلى وقت طويل لحكايتها، ولهذا السبب هناك مثل سائر في صقلية يقول: «إنني أفضل أن أكون في جبل بيل مع الملوك والأمراء على أن أكون في السماء مع المعاقين والعميان»، والمعنى هنا واضح، لأن الرجال هنا أشرار بالمرة، لكن النساء جميلات جداً، وموضع اعجاب عظيم، ويمارسون في صقلية ثلاثة أنواع من العبادات مختلفة: ففي القسم الأول يمارسون الطقوس اللاتينية، وفي القسم الثاني يمارسون طقوس الاغريق، وفي الثالث يمارسون شعائر المسلمين، ومع أنهم جميعاً مسيحيين، هم على كل حال مختلفون وغير متفقين في عقائدهم وممارساتهم، وإنه لأمر مدهش كثيراً أن تكون صقلية إلى هذه الدرجة بلاداً خصبة وجذابة، مع أنها تعاني دوماً من مثل هذا الدمار المرعب من هذا الجبل، لأنه يحدث أن يقذف كميات هائلة من الرماد في يوم أو يومين، فلاتستطيع السائمة لمدة طويلة أن تجد أي مرعى، وزيادة على هذا، يحدث في بعض الأحيان أن تتدفق عدة أنهار من النار واللهب، وكذلك من الأشياء الأخرى المرعبة، وتنحدر من الجبل، ولهذا يقوم الذين يسكنون هناك بالصوم وتقديم النذور، متوقعين أنهم سوف يؤخذون سريعاً إلى الجحيم، وتجري هذه الأنهار منحدرة من الجبل مثل نحاس ذائب يغلي، وتتولى النار استهلاك كل شيء تجده على طريقها، سواء أكان حجراً أم خشباً، وذلك مثلما تتولى المياه الحارة تذويب الثلج وإزالته، وتدمر البلاد في

بعض الأماكن لمسافة ميلين، وذلك حسب طبيعة الأرض منخفضة كانت أو مرتفعة، وتجعلها صحراء، لايمكن سكناها إلى الأبد، وعلى هذا إن صقلية بلاداً فائقة الجودة، ومع هذا هي مرعبة أن تسكن فيها.

١٥ — جبل البركان

ومثل هذا يوجد على مقربة من صقلية جزيرة أخرى صغيرة، فيها جبل واحد فقط، وعند سفح هذا الجبل هناك حديقة هي الأكثر جمالاً وبهاءً، واسم هذا الجبل لدى السكان المحليين جبل البركان، وهو يقوم فجأة مثل فرن بصب اللهب المحرق، بشكل أكثر إرعاباً من جبل بيل، وقد قرأنا بأن هذا الجبل كان يقوم فيما مضى في صقلية، غير أنه بفضائل الرسول القديس برثلميو رمى نفسه في البحر، ونقل نفسه من اليابسة، ولهبه مرعب إلى أقصى الحدود والعنف، وهو يقذف بصخور الخفاف التي من حجم بيوت صغيرة في الهواء، مثلما يفعل المنجنيق، وذلك بقوة هائلة إلى حد أنهن يتفجرن بالهواء مثل التفاح، وتسقط بعض القطع في البحر على بعد حوالي النصف ميل عن هناك، فتقذفها الأمواج على الشاطىء، وتتجمع هناك، وحجارة الخفاف هذه هي التي يستخدمها الكتاب في صقل الرق للكتابة، والذي يذكره بعضهم أنه يتشكل من زبد البحر، هو غير صحيح، حسبما جرى اخبارك، وحدث مرة قبل أن أذهب إلى صقلية، أن النار تفجرت في الحديقة عند سفح جبل البركان، وكان مقدار اتساعها رمية حجر، ولمدة أربعة أيام وأربع ليال ظل اللهب يتصاعد إلى السماء، من الطول ومن العرض، وذلك بشكل مرعب إلى حد أن جميع الناس خيل اليهم أن السماء حقاً والأرض كانتا تشتعلان، وأنه جاء ميعاد اليوم الذي سيفارقون به الحياة، وعندما توقف اللهب، استمر الرماد يتساقط لمدة أربعة أيام وأربع ليال أخرى، إلى حد أن كثيراً من الأماكن والبلدات والمدن هجرها الناس، وغادروها مع كل ما يملكون، وهربوا إلى الجبال ليخبئوا أنفسهم وليحموها من

الرماد حسب أفضل ما هو بإمكاناتهم، ولقد هلكت جميع القطعان وأعداد كبيرة جداً من الناس في السهول بفعل الرماد، وغدت مدن كثيرة، لايمكن رؤيتها البته، لأنها غطيت بكثافة بالرماد، وجف كثير من الانهار بفعل الرماد، وكان لذلك حزن وأسى في صقلية كلها في ذلك الحين، بشكل لايمكن لانسان أن يتذكر مثيله، أو تحدث التاريخ القديم عن مثله، ولهذا قام الصقليون فعقدوا النذور للرب، وأعلنوا الصيام، وأسلموا أنفسهم إلى أعمال التوبة، وصلوا إلى الرب حتى يزيل عنهم غضبه، وأن يقوم من أجل فضائل القديسة أغاثا بتحريرهم من هذا الغضب العظيم، وبناء عليه انتهى الرعب والاضطراب على الفور، ولم يشعروا بعد ذلك بأي من هذا النوع، وقاموا بعد ذلك بتحريم صنع عدد كبير من الأعمال الشريرة التي كان مسموحاً بها حتى ذلك الحين تحت تهديد إنزال أقسى العقوبات.

١٦ — مدينة سرقوسة

ويوجد في صقلية مدينة أخرى، اسمها سرقوسة، فيها واجهت القديسة لوسيا Lucia الشهادة، وفيها يرقد جسدها كله، هذا ويوجد هناك أيضاً عدد لايحصى من آثار القديسين المبجلين، ولسوف أحتاج إلى وقت طويل جداً لأحدثكم عن المزيد من عجائب صقلية، وعن أمجاد وقصور الامبراطور فردريك، وعن اصطياد السمك الذي اسمه الطون، وعن المصادر الأخرى لثرواتها وازدهارها.

وعلى مقربة من صقلية هناك جزائر أخرى كثيرة، كبيرة وصغيرة، مسكونة من قبل المسلمين، ويوجد على مقربة منها هناك جزيرة أخرى اسمها مالطة، وفيها أسقفية واحدة، وقد زرتها مراراً أثناء العبور، وعلى مقربة منها هناك جزيرة أخرى اسمها كولمات Colmat، فيها حفر كثيرة للأرانب، إلى حد أنه لم يبق للسكان ما يكفيهم من أرض للعيش عليها، وعلى مقربة منها هناك ايضاً جزيرة أخرى صغيرة اسمها سكولا

Scola وما من أحد يزور هاتين الجزيرتين الصغيرتين إلاّ الذي يقوم برحلة خاصة إليهما، وإلى جانب هاتين الجزيرتين، هناك أيضاً جزيرة أخرى اسمها غوي Goy (غوزو Gozo) يوجد فيها كثير من القطعان، ومنتجات الحليب، وقد أبحرت مرة بين هذه الجزيرة والجزيرة الأخرى في حالة رعب كبيرة، وكنت في سفينة كبيرة، في أثناء أكثر العواصف عنفاً، وما من أحد يتذكر أن سفينة بمثل هذا الحجم الكبير قد سارت قط خلال ذلك الطريق.

١٧ — آخيا

ولدى متابعة السفر من صقلية، يعبر الانسان خليج البندقية، الذي يفصل البندقية عن اليونان، ولدى ابحار الانسان على محاذاة شواطىء بلاد اليونان وملتفاً حولها، يصل إلى آخيا ومقدونية، ومناطق أخرى من بلاد الاغريق، يطلق عليها اسم رومانيا، وعليك أن تعرف أن البلاد التي كانت تعرف باسم آخيا اسمها الآن المورة، وقد استولى القطالونيون على هذه البلاد بالقوة، وفصلوها عن بلاد الاغريق، ويوجد هناك مدينة جميلة اسمها بتراس Patras فيها واجه القديس أندرو الشهادة، فضلاً عن هذا فإن القديس انطوني وعدد كبير آخر من القديسين قد سكنوا فيما مضى هناك، أو ولدوا في تلك البلاد، وليس بعيداً عن بتراس توجد أثينا، التي ازدهرت فيها فيما مضى مدارس الاغريق، ولقد كانت هذه في الأيام الخوالي مدينة جليلة جداً، لكنها الآن تكاد أن تكون مهجورة، هذا ومن النادر أن تجد في أي مكان في جنوا عموداً رخامياً أو قطعة جيدة من الحجر المنحوت، هي لم تجلب إلى هناك من أثينا، فالمدينة كلها قد بنيت من أحجار أثينا، مثلما بنيت البندقية من حجارة طروادة، ويوجد في أراضي آخيا هذه نفسها مدينة كورنثا الفائقة الجمال والحصانة، وهي قائمة على ذروة جبل، ومثل هذه المدينة بحصانتها وقوتها نادراً ما سمع بشبيه لها، لأنه لو قام العالم كله

بحصارها، لن تشعر مطلقاً بالحاجة إلى القمح، والخمر، والزيت والماء، وإلى هذه المدينة كان القديس بولس قد كتب عدداً من الرسائل، وليس بعيداً عن كورنثا تقوم مدينة غلاطية التي إليها كتب القديس بولس رسائلاً، و«غلا» بالاغريقية تعني ما تعنيه كلمة لاك Lac (حليب) باللاتينية، ذلك أن الذين يسكنون هناك هم أكثر بياضاً من الأناس الآخرين من حولهم، وذلك من طبيعة المكان، هذا وإن هذه المدينة التي عرفت فيما مضى باسم غلاطية، تعرف الآن باسم بيرا Pera، فضلاً عن هذا يسكن في آخيا— أو المورة— رهبان من طائفة التيوتون، وهم يمتلكون هناك قلاعاً في غاية الحصانة، وهم دوماً على خلاف مع دوق أثينا والاغريق، وعندما يتابع الانسان ترحاله من آخيا، أو المورة، يمر بعدد من الجزر الاغريقية، وذلك لدى ابحاره على طول ساحل آسيا الصغرى، ويصل الانسان إلى جزيرة اسمها كيوس، التي هي جزيرة متميزة بشكل خاص، فهناك ينمو المسطكى، ولاينمو في مكان آخر في العالم، حيث صحيح أن أشجارها تنمو بما فيه الكفاية في أماكن أخرى، لكن لايوجد عليها ثمار، وينمو المسطكى مثل الصمغ، ويتساقط من الأشجار، ومن هناك يرسل إلى جميع أنحاء العالم، ولهذه الجزيرة أسقف، كان في أيامي من طائفة الدومينيكان، وقد انتزعت هذه الجزيرة بالقوة من امبراطور القسطنطينية من قبل أخوين جنويين، وفيما بعد وقع خصام بين هذين الأخوين، فتخلى واحد منهما سراً عن حصته وأعادها إلى الامبراطور، واعتقل أخاه، وأبقاه لمدة طويلة في السجن، فانتزع الامبراطور الجزيرة منهما معاً، لكنه في أيامي أدخل الأخ السجين في حظوته، وجعله قائداً لجيشه، وأعطاه بعض القلاع، ومن كيوس يبحر الانسان إلى جزيرة بطمس Patmos، التي إليها جرى نفي القديس يوحنا الانجيلي من قبل دوميشيان، وهناك رأى السموات مفتوحة فكتب سفر الرؤيا، ويمكنك الابحار من بطمس على محاذاة ساحل آسيا الصغرى، والوصول إلى إفسوس إذا كنت ترغب بذلك، وهذه البلاد

التي كانت تعرف من قبل باسم آسيا الصغرى، تعرف الآن باسم تركيا، لأن الاتراك انتزعوها من الاغـريق، وعليك أن تعرف أن الأتراك رجال سود طوال، وهم مسلمون متحمسـون، مع انهم ليسوا من أصل عربي، وهم بالحري مسيحيـون مـرتدون، وهـم يشبهـون مـن جميع الجوانب الفـريزيين، ويسكنون إلى جانب شـواطىء بحـر الشمال (كذا) في قـلاع حصينة جداً، انتزعوها من الاغـريق، وليس لديهم سلاح سوى القوس والنشاب، ويعيشـون على الحليب وما شابهه، ويتجـولون هنا وهناك مع قطعانهم، وفي كل اتجاه، وهم لهم عادات الفريزيين نفسها.

١٨ — *مدينة إفسوس*

عليك أن تعرف أن مـدينة إفسوس الحقيقية تبعد أربعـة أميال قصيرة عن البحر، ويوجـد في هذه المدينة كنيسة جميلة بنيت على شكل صليب، وهي مسقـوفـة بالرصـاص، وهي مـزينة بشكل بهي بأعمال الفسيفسـاء والرخام، وهي موجودة حتى هذا اليوم، وهنا حدث أن ذلك الرسول المحبوب عندما تخبأ لعيد من الأعياد، دخل إلى ضريح، كان الظلام مخيماً عليـه، ولم ير بعـد ذلك مطلقـاً، وهذا الضريح على مقـربـة من مـذبح مـرتفع، والمكـان الذي حفـر فيـه الصخـر ونحت ظاهر مـرئي للذين يريدون الدخـول إليـه شرط أن يدفعـوا أولاً فلسـاً إلى الأتراك، ويبيع الأتراك الآن في الكنيسة الحريـر، والصوف، والقمح وماشـابه ذلك من البضـائع، وكـانت مدينة إفسـوس تقـوم فيما مضى وفق شكل غـريب، وذلك بين جبلين،وعلى هـذا فإن طرفيهـا كـانا على جبلين ووسطهما وادي، والكنيسة التي فيهـا ضريح القديس يوحنا، كانت على بعـد رمية سهم عن هذه المدينـة وكـانت قـائمـة على رأس جبل، وبما أن البقعـة القريبة من الكنيسة هي أكثر حصـانة، فقد جرى نقل مدينة إفسوس من قبل الأتراك خـوفاً من المسيحيين، والمدينة القـديمة هي مهجـورة الآن، وفي أيامي كان يسكن هناك سيدة نبيلة كـان زوجها يمتلك المدينة كلها،

وكان هناك رجلاً اسمه زلابين Zalabin ، وهو تركي، انتزع المدينة منهما، وبموافقة منه سكنت السيدة النبيلة تحت قلعة إفسوس، وقد حصلت على إجازة منه لبيع الخمر إلى التجار، وبحزن وأسى عظيم أباحت لنا عن أحزان قلبها لفقدانها زوجها ومدينتها، وعلى مقربة من مدينة إفسوس هناك نبع صغير مستدير، فيه أسماك رائعة بأعداد كبيرة، ويندفع الماء من هذا النبع بكميات كبيرة كافية لسقاية جميع المروج والحدائق والأراضي التي هي هناك، وعليك أن تعرف أن المدينة التي عرفت فيما مضى باسم مدينة إفسوس، أطلق عليها من قبل الاغريق اسم ثيولوغوس Theologos(آيا سلوق)، وهي تعرف الآن باسم ألتيلوت Alttelot ، أي المكان المرتفع(Altus - Locus) ، لأن المدينة — كما أخبرتكم قد نقلت إلى مكان مرتفع حول الكنيسة، وعلى بعد حوالي أربعة أميال من هذه المدينة القديمة، أعني مدينة إفسوس، قد جرى بناء مدينة جديدة، وذلك على شاطىء البحر ، حيث يوجد الميناء، وقد سكنت من قبل مسيحيين،كانوا قد طردوا من لومبارديا أثناء نزاع، ولدى هؤلاء الناس كنائس، ورهبان فرنسيسكان، ويعيشون مثل المسيحيين، وعلى كل حال كانوا قد أنزلوا فيما مضى من أيام بالمسيحيين أضراراً كبيرة بالتعاون مع الأتراك، وعلى مقربة من مدينة إفسوس الجديدة هناك نهر مثله بالاتساع مثل نهر الراين، وهو يجري خلال بلاد تركيا قادماً من بلاد التتر، وتنحدر على هذا النهر ويجري نقل كثيراً من التجارات من مختلف الأنواع، وذلك مثلما يفعل على ظهر الراين في هذه المناطق، وفي هذا النهر اعتاد الأتراك، والذين يدعون زيفاً باسم المسيحيين، على جمع سفنهم، وأسلحتهم، وعتادهم، عندما يقررون القتال ضد المسيحيين، وعلى هذا النهر و عبره يلحق بالمسيحيين كثير من الأذى والضرر.

١٩ ـــجزر متنوعة في البحر وأولها جزيرة رودس

من إفسوس يمكن للانسان أن يستأنف إبحاره إلى عدد كبير من الجزر الأخرى المختلفة، وعليك أن تعرف أنه يوجد في تلك المنطقة من البحر أكثر من سبعمائة جزيرة صغيرة وكبيرة، مسكونة ومهجورة، لبعضها فضائل خاصة، وبعضها مليء بجميع أشكال الأشياء الجيدة، بينما بعضها مليء بينابيع سامة، ومخلوقات ضارة جداً، وبين هذه الجزر هناك جزيرة صغيرة فيها نبع مياه حارة جداً، وهي تغلي مثل مياه في قدر، وهي سامة إلى حد لو أن طائراً طار فقط فوقها لمات، وإلى جانب هذه الجزيرة هناك جزيرة أخرى، لايتجاوز قياس محيطها الميلين، تقوم عليها كنيسة صغيرة، وعلى هذه الجزيرة وعول وحيوانات برية أخرى، وهم من الكثافة بمكان إلى حد أنه لايخلو مكان في الجزيرة منهم، ونزل رفاقي في إحدى المرات في هذه الجزيرة، فوجدوا في الكنيسة رماحاً وترسة، وقسياً عقارة مع كثير من السلاح، ومخزوناً كبيراً من اللحوم المجففة، كانت قد جلبت إلى هناك من قبل قرصان البحر واللصوص فيه، ولعل ذلك كان بعد الاستيلاء عليها مرة إثر أخرى، فقد خزنوها هناك، وقد انتظر رفاقي هناك طوال اليوم متوقعين قدوم اللصوص، وذهبوا إلى الصيد، لكنهم لم يمسكوا أي شيء، ولكن صدف عند حلول المساء، أن واحداً منهم كان جالساً بين صخرتين، فجاء وعل ليمر من فوقه، فقطع رجله اليمنى وجرح اليسرى بضربة من سيفه، وهكذا حصلوا على الوعل وغادروا، ويوجد إلى جانب هذه الجزيرة جزيرة أخرى، لايوجد فيها أية حيوانات باستثناء بعض الحمير الوحشية، وهي تعطي فرصة جيدة لرياضة صيدها، لكن ليس لديها لحوم جيدة للأكل مثل لحوم الطرائد الأخرى، وليس بعيداً عن هذه الجزيرة هناك جزيرة أخرى اسمها بيرا Peyra ، وهي جزيرة جيدة، يوجد فيها ثلاثة أشكال من الحجارة اسمها Alun ، بكميات كبيرة جداً، ولهذا تصدر

هذه الحجارة من هناك إلى جميع أنحاء العالم، ومنذ وقت غير طويل استولى الجنويون على هذه الجزيرة وانتزعوها من الأتراك بالقوة، وفعلوا خيراً بإعادتها إلى أسقفيتها وإلى أحوالها الأصيلة، وهذه الجزيرة على مقربة من تركيا، وبينها وبين تركيا جسر، لو استطاع الأتراك لما سمحوا لأحد بعبوره، سواء أكان الحال فيما بينهم حالة حرب أو سلم، وتجدهم عدوانيين كثيراً لدى خسارتهم للجزيرة، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل لإخباركم حول الجزر الأخرى، وإذا ما ترك الإنسان هذه الجزر، يبحر ثانية عائداً إلى شواطىء آسيا الصغرى أو تركيا، ويصل إلى باترا Pa-tara ،التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، وفائقة الجمال، وقد جرى تدميرها الآن من قبل الأتراك، وولد في هذه الجزيرة البابا التقي نيقولا، ويبحر الانسان من باترا ليصل إلى مدينة أخرى كانت جليلة جداً أيضاً، غير أنها مدمرة الآن، اسمها ميرا Mirrhea ، فيها جرى انتخاب البابا نيقولا المجيد بشكل رائع أسقفاً، وهو الذي أنار تلك البلاد كلها بمعجزاته الكثيرة وبمحاسنه وفضائله، ومن ميرا — إذا ما اخترت — يمكنك متابعة الابحار، ولسوف تصل إلى جزيرة جيدة جداً ومشهورة اسمها كريت، وهي التي كانت فيما مضى مملكة قائمة بنفسها، غير أنها لاتحتوي على كثير من المدن المحصنة، واسم أعظم مدنها الخندق ويحرق في الجزء الأعظم من هذه الجزيرة القصعين من أجل استخدامات نار الحطب، وقد استولى البنادقة على هذه الجزيرة بالقوة، وانتزعوها من الاغريق، ومن كريت يبحر الانسان إلى جزيرة أخرى جميلة جداً ومتميزة، وصحية ولطيفة، وقد كان اسمها فيما مضى كولوس Co-los، ولها حاضرة اسمها كولوسينسيس Colossensis ، ولهذه الجزيرة كان القديس بولس قد كتب رسالته(إلى أهل كولوسي)، وتعرف هذه الجزيرة باسم رودوس، بسبب إقليم المناخ السابع للعالم، الذي تقف هذه الجزيرة لوحدها فيه، وهي تفصل بين أقاليم المناخات وتميزها.

ومن هذه الجزيرة كان قد جاء الدمار أولاً إلى مدينة طروادة النبيلة، لأنهم قالوا عاش هناك الكبش مع الخاروف الذهبي، الذي قرأنا عنهما مطولاً في تواريخ طروادة، وجزيرة رودس هذه جزيرة ثمينة جداً، ذلك أنها جبلية، وقائمة وسط رياح صحية جداً، وهي مليئة بحيوانات برية اسم واحدها الأيل الأسمر، فضلاً عن هذا، إنك من أي مكان من البحر أبحرت لابد من أن تمر برودس أو بالقرب منها، وفي هذه الجزيرة هناك مدينة اسمها رودس، وهي فائقة الجمال وحصينة، ولها أسوار عالية وأبراج منيعة بنيت من أحجار كبيرة جداً، تبعث على العجب كيف استطاعت اليد البشرية وضعها في أماكنها، ولدى فقدان عكا، قام مقدم فرسان اسبتارية القدس مع رهبانه بالاستيلاء على هذه الجزيرة بالقوة، وانتزعوها من الاغريق، وقد حاصروها لمدة سنة، وما كان بإمكانهم الاستيلاء على المدينة، لولا أنهم كسبوا سكانها إلى جانبهم عن طريق الرشوة، وهكذا سلموا الجزيرة برضاهم، ولهذا قام رهبان الطائفة باتخاذها مقراً قيادياً لهم، وفيها سكنوا ومازالوا حتى هذا اليوم، وهناك ثلاثمائة وخمسين راهباً مع مقدم الطائفة، الذي كان في أيامي ايلينوس(دي فيلانوفي ١٣٢٧ — ١٣٤٦)، وهو رجل متقدم بالسن كثيراً، وبالغ الشح، وقد جمع ثروة لاتحصى، وبنى كثيراً في رودس، وحرر الطائفة من جميع ديونها الواسعة، وتقوم هذه الجزيرة على مسافة عن تركيا تساوي قدر مايبلغه صوت إنسان، فهي مفصولة عن تركيا بوساطة مضيق بحري وتجبي الجزية من كل المناطق المحيطة بها، ومن تركيا ثلث منتجات تلك البلاد، ولها في تركيا قلعة صغيرة، لكن حصينة جداً، وبين هؤلاء الرهبان وبقية تركيا هدنة على اليابسة، ولكن ليس في البحر، ولا في الأماكن التي يؤذون فيها المسيحيين، ويمتلك رهبان فرسان الاسبتارية هؤلاء أنفسهم جزيرة أخرى حصينة اسمها لانغو Lango ، مليئة بالقمح، والخمرة، والزيت مع كثير من الثمار ويسكن فيها خمسين من فرسان الاسبتارية، من رودس، ويمتلك

الفرسان جزيرة ثالثة كـذلك صغيرة، وخصبة اسمها قلعة روسو Ros-so ، التي تولى الأتراك نهبها في إحدى المرات، غير أنها مسكونة الآن بشكل جيـد من قبل الفرسـان ومرتزقتهم، ويوجـد فيها قلعـة حصينة جداً وعـالية، منها يمكن رؤية كل سفينة تبحر إلى أية جهـة من جهات البحر لمسافـة خمسين ميلاً تقريباً، ووقتها يرسلون الشـارات إلى الفرسان في رودس ولانغـو، وإلى المسيحيين الآخـرين في ذلـك المحيط، وذلك باستخـدام الدخـان بالنهـار، واللهب في الليل، ويخبرونهم بعـدد السفن الموجـودة في البحـر، وبنـاء عليـه يقـوم الفـرسـان والمسيحيـون باتخاذ اجـراءات الاستعـداد للقتـال والدفـاع وفقـاً لعـدد السفن التي تلقـوا شـارات عنها، وهـذه الجزيرة نافعة جـداً بالنسبـة للمسيحيين، فمنذ أن امتلك الاسبتـاريـة الجزيرة والقلعـة، لم يقم الأتـراك بإلحاق الأذى بالمسيحيين بسفنهم، فضـلاً عن هذا اعتـادت جزيرة رودس مع جـزيرة لانغـو، وجميع الجزر، والبلاد المسيحيـة هناك على دفع الجزية إلى الأتراك قبل أيام الاسبتـارية في رودس، لكـن الآن بفضل نعمـة الرب عكس الاسبتارية الوضع تماماً، وكان الأتـراك عندما سمعوا بأن جزيرة رودس جرى الاستيـلاء عليها من قبـل فرسان القـديس يوحنا، حشـدوا جيشاً كبيراً، وأرسلوا أولاً سفـارة مهيبـة تطالب في البـداية بشكل لطيف وبعرض سلمي بـدفع الجزية المستحقة لهم على الاسبتاريـة، مع الاعلان أنهم سيقومـون عن طواعية بإبرام سـلام وعقد معاهـدة مع الاسبتارية، وفي جميع الأحـوال عليهم دفع الجزيـة لهم، ولم يكن للطائفـة في ذلك الوقت مقدم لأن الراهب فـولك دي فيلارت Villaret ، الذي كان مقدم الطائفة،كـان قد جرى خلعه من قبل الفـرسان إثر خلاف ونزاع، غير أن واحداً من الرهبـان من بازل Basle وكان شجـاعاً جـداً، وفارساً أميناً، كان وقتذلك الوصي على الطائفة، عمل الجواب وتقدم به إلى الأتراك، راجيـاً منحه فـرصـة ثلاثة أيام من أجل التفكير والتقـدير، وأن تكون هـذه الأيام بمثـابـة هدنة، الأمـر الذي رحب بـه الأتراك

ومنحـــوه إياه، وأمـروا جيشهم بـأن يكون على أهبـة الاستعـداد، وفي الوقت نفسـه تابع هذا الوصي ذاته الاحتفـال يومياً مع الأتراك، ووجـد ببراعة كل مـا كان بحـاجة إليه حـول جيشهم، وأحواله ووضعـه، وما الذي ينوي فعله، وحشد في الوقت نفسه أكبر عدد من السفن والرجال أمكنه توفيرهم، وتظاهر في اليـوم الثالث أنه على وشك مغـادرة رودس للقتال ضـد الاغريق، وسأل الرسل الأتراك بالدخول إلى بيتـه خشية أن يلحقهم بعض الأذى على أيدي المسيحيين، والبقـاء هناك حتى عـودته، وفعل الرسل مـا طلب منهم، وقـام إثر ذلك هذا الفـارس، الذي هو الوصي على الطائفة بـوضع حرس حول الرسل بشكـل سري من ثقاته، وأقلع إثر هذا مع جيشـه وبات في وسط البحر، وانقض في فجـر اليوم التالي على جيش الأتراك، وفتك به وقتل أفراده من دون تمييز بين رجل وامـــرأة، وشـاب وشيـخ، لأن من عـادة الأتـراك والتتـار اصطحـاب أزواجهم وأولادهم الصغار وجميـع مقتنياتهم معهم في الجيش، إلى حيثما توجهـوا وقصدوا، وهكذا بعـدمـا قتلوا جميع الناس وحصلوا على جميع مقتنيـاتهم وقطعانهم، عـاد هؤلاء الفرسـان إلى رودس في اليوم الثـالث وسط بهجة عارمة.

ولقد سمعت من بعض الذين كانوا حضوراً، أنهم حصلوا على كثير من الأسـلاب، حتى أنهم حـزمـوا هذه الأسـلاب وجـروها في البحـر بوسـاطة حبـال، شـدوها إلى السفن، وعندمـا كمل هذا كله، استـدعى الوصي على الطائفـــة الرسل الأتـراك، وأخبرهم بأن الاسبتـــارية على استعـداد لإقامـة هدنة ولعقد معـاهدة مع الأتراك، ثم تركهم يغـادرون على الفـور، فقامـوا باليوم نفسـه، وسط بهجـة عظيمة، بالرسـو بالمكان الذي تركـــوا فيـه جيشهم، غير أنهم وجـــدوا أن جيشهم قـــد قتل كله حديثاً، وأجساد أفـراده معراة ومسلوبة، وأن جميع الممتلكات قد أخذت بعدما سلبت، وعندما رأوا هذا كله، ذهبوا إلى موطنهم حزينين بقدر ما

كانوا مسرورين، ونقلوا ما لديهم من أخبار إلى بقية الأتراك، ومنذ ذلك الحين لم يطلب الأتراك الجزية من التتار من فرسان القديس يوحنا أو من المسيحيين في رودس حتى هذا اليوم.

وفي رودس هناك الكثير من الآثار المبجلة، من بينها الصليب النحاسي، المعتقد أنه صنع من الجرن الذي غسل فيه المسيح أقدام حواريه، هذا وللقوالب الشمعية المصنوعة بوساطة هذا الصليب قوة هائلة في تهدئة العواصف في البحر، وكان هذا الصليب مع آثار أخرى مبجلة، هي الآن لدى فرسان الاسبتارية، كانت ملكاً فيما مضى لفرسان الداوية، ذلك أن جميع مقتنياتهم وقلاعهم هي الآن ملكاً للفرسان المتقدم ذكرهم، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن بقية أمجاد رودس الأخرى، وكذلك عن جميع الانتصارات المتنوعة للفرسان المتقدمي الذكر، ويبحر الانسان من رودس إلى قبرص.

٢٠ — *قبرص*

قبرص جزيرة جليلة جداً، وشهيرة، وفي غاية الثراء، إلى درجة لايمكن مقارنتها مع جميع جزائر البحر الأخرى، وهي خصبة بجميع الأشياء الجيدة، ومتفوقة على سواها، وقد قرأنا بأنها سكنت أولاً من قبل يافث بن نوح، وبالنسبة إلى حجمها، هي متفوقة على جميع البلدان الأخرى، والمدن الساحلية في الجوار، ذلك أنها محاطة بما يشبه الطوق ببلاد مصر، وسورية وأرمينية، وبلاد الاغريق، والمسافة من قبرص إلى جميع هذه البلاد ليست أكثر من سفر نصف يوم بالبحر، وذلك كما سأذكر فيمايلي.

وكانت هذه الجزيرة المجيدة فيما مضى ملكاً للداوية، الذين باعوها إلى ملك القدس، ثم إنه عندما فقدت عكا مع الأرض المقدسة، وجرى تدميرها، انتقل ملك القدس، والأمراء،والنبلاء وبارونات مملكة القدس

إلى قبرص وسكنوا هناك، وهم يسكنون هناك حتى هذا اليوم، وهكذا غدت قبرص مملكة، وفي قبرص ثلاثة أسقفيات هي أسقفيات: بافوس، وليماسول، وفيماغوستا، وفيها مطرانية واحدة، رئيسها أسقف نيقوسيا، الذي هو في أيامي راهب ماروني اسمه الياس، وقد صار كاردينالاً من قبل البابا كليمنت السادس(١٣٤٢ — ١٣٥٣)، وأقدم مدينةفي قبرص هي مدينة بافوس، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة جداً، ومكاناً عظيماً، وهي قائمة على شاطىء البحر مباشرة في مواجهة الاسكندرية، وقد تولى بولس وبرنابا هداية هذه المدينة إلى الايمان بالمسيح، ومنها اهتدت الأرض كلها وتحولت إلى العقيدة، وذلك حسبما جاء في أعمال الرسل(١٥/ ٣٩)، وقام فيما مضى على مقربة من بافوس قلعة فينوس،حيث اعتادوا على عبادة صنم فينوس، وكانوا يرتحلون من بلدان نائية لزيارة أبوابها، وهناك كان يجتمع نبلاء السادة والسيدات، والشابات مع بعضهم في تلك القلعة، وفي هذا المعبد اتخذت الخطوة الأولى نحو تدمير طروادة، لأن هيلين قد أسرت عندما كانت في طريقها إلى هذا الهيكل، فضلاً عن هذا اعتادت جميع الشابات والفتيات على قطع العهود في هذا المعبد بالنسبة للزواج وللأزواج، ولهذا السبب فإن الرجال في قبرص جنسيين بالطبيعة أكثر من سواهم في البلدان الأخرى، لأنه إذا ما وضع تراب من قبرص، وبشكل خاص من الموضع الذي كانت قلعة فينوس قائمة فيه، تحت رأس إنسان لدى نومه، فإن ذلك سوف يدفعه إلى ممارسة الجنس طوال الليل، وعلى مقربة من بافوس يوجد المكان الذي اعتاد القديس هيلاري Hilary أن يسكن فيه، وهناك صنع كثيراً من المعجزات، وهناك أماكن أخرى كثيرة اعتاد قديسون آخرون على السكنى فيها، وبشكل خاص القديس زيزونيموس Zyzonimus ، والقديس ممّا Mamma ، الذي ولد في ألمانيا، وإليه اعتاد الاغريق على الصلاة بتقوىٰ عظيمة من أجل التخلص من الدمامل.

٢١ — كرم عين الجدي

ويوجد في أسقفية بافوس هذه نفسها كرم عين الجدي، الذي لانظير له في العالم، وهذا الكرم قائم فوق جبل عظيم الارتفاع، وطوله ميلان، وهناك شعاب شاهقة تحيط به من كل جانب مثل سور، وله مدخل واحد ضيق، وهو منبسط تماماً على الذروة تماماً، وينمو في هذا الكرم كثير من العنب، وهناك دوالي من مختلف الأنواع، وبعضها ينتج عنباً الحبة الواحدة كبيرة بحجم حبة الكمثرى الكبيرة، وينتج بعضها الآخر عنباً الحبة منه صغيرة مثل حبة الكمثرى الصغيرة، وتنتج بعض الدوالي عناقيد عنب واحدها كبير مثل عدة جرار، وبعضها الآخر عناقيد صغيرة جداً، وتعطي بعض الدوالي عنباً أبيض، وبعضها الآخر عنباً أسود، وبعضها عنباً أحمر، وتعطي بعض الدوالي عنباً من دون بذور، وبعضها الآخر أعناباً مستطيلة، شكلها مثل شكل جوزة البلوط، وبعضها شفافاً، كما هناك أنواع أخرى لاتحصى من الدوالي والأعناب من الممكن رؤيتها في هذا الكرم، وكان هذا الكرم فيما مضى ملكاً لفرسان الداوية، لكنه الآن ملكاً لفرسان القديس يوحنا في رودس، وكان هناك في أيام الداوية دوماً مائة من الرقيق — أعني من أسرى المسلمين — موجودين بشكل دائم، ليس لهم من واجبات أو عمل مفروض عليهم، غير العناية بهذا الكرم ورعايته، ولقد سمعت من عدد كبير من الرجال ذوي الخبرة العظيمة، أنه لايوجد تحت الشمس أكثر جمالاً من هذه الجوهرة، وأعظم جلالاً، أو روعة ، وقد خلقها الله من أجل فائدة الانسان، وذلك مثلما نقرأ عن الشيء نفسه في نشيد إنشاد سليمان قوله:«حبيبي بالنسبة لي مثل عنقود كافور في كروم عين جدي»(١/ ١٤).

وليس بعيداً عن بافوس تقوم ليماسول، التي كانت فيما مضى مدينة جميلة، غير أنها الآن مدمرة كثيراً بسبب الزلازل، وتدفق المياه بشكل

مفاجىء من الجبال، وهذه المدينة قائمة على الساحل، وهي تقابل بشكل مباشر، صور، وصيدا، وبيروت، وعندما فقدت عكا سكن هذه المدينة فرسان مشفى القديس يوحنا، وفرسان الداوية، والنبلاء الآخرون، ومن الممكن رؤية قصورهم الكثيرة وقلاعهم حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من ليماسول هناك كرم آخر اسمه كرم عين الجدي الصغير، وفيه ينمو كثير من الدوالي، لايمكن للانسان أن يقيسها بذراعيه، غير أنها ليست طويلة جداً، ولاتعطي كثيراً من الثمار، وفي موضع من هذه الأسقفية اسمه برافيمانت Pravimunt(بنينانت Peninunt) يسكن رهبان من فرسان طائفة التيوتون، وكذلك بعض الانكليز من طائفة القديس توماس أوف كانتربري، ويوجد في هذه الأسقفية أيضاً جبل عظيم الارتفاع، قائم منفرد بذاته، يشبه كثيراً جبل الطور، ويقوم على ذروته دير جميل، فيه رهبان من طائفة القديس بندكت، وفي هذا الدير الصليب الكامل الذي صلب عليه اللص على يمين المسيح، وقد أحضر إلى ها هنا من قبل القديسة هيلانة، وهي أيضاً تولت بناء هذا الدير مع تكريسه، وتجري تحية هذا الصليب والسلام عليه بكل تقوى من قبل جميع البحارة وهم في البحر، وذلك عندما يقتربون من هذا الجبل، وقد صنع الرب كثيراً من المعجزات على الجبل، بسبب فضائل الصليب المذكور، ومن الممكن رؤية جبل لبنان بوضوح من هذا الجبل.

٢٢ — *مدينة فيماغوستا*

واسم المدينة الثالثة في قبرص هو فيماغوستا، وهي قائمة على شاطىء البحر، وفيها الآن ميناء لجميع البحر، وللمملكة كلها، وهناك لابد من تجمع التجار والحجاج، وتقوم هذه المدينة مباشرة في مواجهة أرمينيا وتركيا،وعكا، وهذه أغنى جميع المدن في قبرص، وسكانها أثرياء إلى أبعد الحدود، وفي إحدى المرات كان واحداً من أهالي فيماغوستا يزوج ابنته، وقد قال الفرسان الفرنسيون الذين كانوا يبحرون معنا بأن

الجواهر التي وضعتهم فوق رأسها كانوا أفضل من جميع جواهر فرنسا، وكان في هذه المدينة تاجراً باع إلى السلطان كرة سلطانية ذهبية بمبلغ ستين ألف فلورين، وتحتوي هذه الكرة على أربعة أحجار كريمة فقط هي من: العقيق الأحمر، والياقوت الأزرق، واللؤلؤ، والزمرد، ومع هذا ذهب إليه فيما بعد والتمس أن يسمح له بشراء تلك الكرة ثانية مقابل مائة ألف فلورين، لكن التماسه رفض، فضلاً عن هذا كان لدى قسطلان القدس أربع لآلىء، كانت زوجته ترتديهم على شكل«بروش»، كان بإمكانه متى أراد، وحيثما رغب، أن يرهنهم مقابل ثلاثمائة ألف فلورين، وكان في مخزن هذه المدينة أكثر من حمولة خمس عربات من خشب الصبر، ولن أقول شيئاً عن التوابل، لكثرة تداولها وانتشارها، فهي مثل الخبز هنا، وهي تمزج بشكل عادي وتباع، وكذلك لن أجرؤ على أن أقول شيئاً أكثر حول الأحجار الكريمة، والثياب المذهبة، وأنواع الثروات الأخرى، لأنه يوجد في تلك المناطق مخازن منهم لم يسمع بمثلها، ولايمكن تصديقها، ويسكن في هذه المدينة عدد كبير من المومسات الثريات جداً بشكل لايحصى، ذلك أن بعضهن يمتلكن أكثر من مائة ألف فلورين، وعن ثرواتهن لا أتجرأ على قول المزيد.

٢٣ — *سلامينا ونيقوسيا*

وعلى مقربة من فيماغوستا هناك مدينة ساحلية أخرى اسمها كونستانتيا، أو سلامينا، وهذه كانت فيما مضى مدينة جليلة، وشهيرة، وجميلة، فعلى ذلك تدلك خرائبها، وقد عاش في هذه المدينة رجل رائع في قداسته، اسمه القديس ايبيفانيوس Epiphanius ، وقد انتخب أسقفاً بشكل إعجازي ودفن هناك، وولدت في المدينة نفسها العذراء القديسة كاترين، وتقوم بيعتها حتى هذا اليوم فوق موضع ولادتها، وواجه في هذه المدينة القديس برنابا الرسول الشهادة، وعلى مقربة منها جرى إحراق جسده ودفنه، وقد مجد القديس ايبيفانيوس هذه المدينة

وجميع المنطقة من حولها بكثير من المعجزات، غير أن هذه المدينة مدمرة الآن بشكل كلي.

ويوجد في قبرص مدينة أخرى عظيمة جداً اسمها نيقوسيا، وهذه المدينة هي حاضرة قبرص، وهي قائمة وسط سهل هناك عند سفح الجبال، وفي وسط هواء صحي جداً، ويسكن في هذه المدينة ملك قبرص والأساقفة ورجال الكنيسة الآخرون، الذين هم من أهل المملكة، وذلك بسبب هوائها الصحي، ويعيش أيضاً هناك القسم الأكبر من الأمراء الآخرين، والكونتات، والبارونات، والفرسان، ويمتعون أنفسهم كل يوم بالمباريات والمنازلات، وبالصيد بشكل خاص، ويوجد في قبرص كباش برية، ليست موجودة في مكان آخر في العالم، ومن الممكن اصطيادهم بوساطة الفهود، ومن غير الممكن اصطيادهم بأية وسيلة أخرى.

والأمراء والنبلاء، والبارونات، والشعب في قبرص هم الأغنى في العالم، لأن الانسان الذي يمتلك فيها مورداً قدره ثلاثة آلاف فلورين، ينظر إليه أقل من الانسان الذي دخله في هذه المناطق أقل من ثلاثة ماركات، غير أنهم ينفقون ثرواتهم على الصيد، فأنا أعرف واحداً من كونتات يافا لديه أكثر من خمسمائة كلب صيد، وكل زوج من هذه الكلاب له خادم خاص بهما، — كما جرت العادة في هذه البلاد — ويحافظ الخادم عليهما نظيفين، ويحممهما، ويدهنهما، فهذا مايحتاج للقيام به بالنسبة لكلاب الصيد في هذه البلاد، وكان أيضاً أحد النبلاء لديه على الأقل عشرة صقور، أو اثني عشر صقراً، وقد رصد لهم ميزانية خاصة بهم للانفاق عليهم، وأنا أعرف عدداً كبيراً من النبلاء الفرسان في قبرص بإمكان كل واحد منهم تجنيد أكثر من مائتين من الرجال المسلحين والانفاق عليهم مبلغاً أقل من المبلغ الذي ينفقه على كلاب صيده أو صقوره، لأنهم عندما يخرجون إلى الصيد يبقون أحياناً لمدة

شهر في الغابات وفي الجبال، يتجولون مع خيامهم من مكان إلى مكان آخر، يتمتعون ويتسلون بالصيد مع كلابهم وصقورهم، وينامون في الغابات والحقول في خيمهم، ويحملون معهم كل ما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد على ظهور الجمال مع حيوانات التحميل.

وعليك أن تعرف أن جميع الأمراء، والنبلاء، والبارونات، والفرسان، وأفراد الشعب في قبرص، هم الأفضل والأغنى في العالم، وهم يسكنون الآن هناك مع أولادهم، وكانوا قد اعتادوا من قبل على السكنى في أراضي سورية ومدنها، وفي اليهودية، وفي مدينة عكا الجليلة، لكن أما والآن قد تمت خسارة الأراضي والمدن السورية وكذلك اليهودية ومدينة عكا الجليلة، فقد هربوا إلى قبرص، وسكنوا هناك ومايزالون يسكنون حتى الآن، ويوجد في قبرص أناس أغنياء جداً، وتجار، ولاعجب في ذلك، لأن قبرص موجودة في أقصى(الشرق) بالنسبة للبلدان المسيحية، ولهذا لابد لجميع السفن الصغيرة والكبيرة، ولجميع التجارات مهما كان نوعها، ومن أي بلد جاءت، لابد أنها محتاجة إلى القدوم أولاً وقبل كل شيء إلى قبرص، حيث لايمكنها بأي شكل من الأشكال تجاوزها، فضلاً عن هذا يحتاج جميع الحجاج القادمين من جميع أنحاء العالم ومن أي بلد كان، عندما يتجهون إلى البلدان القائمة فيما وراء البحار، يحتاجون إلى القدوم إلى قبرص، وفي كل يوم منذ شروق الشمس حتى غيابها يسمع الانسان ببعض الأقاويل وببعض الأخبار هناك، وفي قبرص من الممكن أيضاً سماع جميع اللغات المحكية في العالم والتحدث بها، وكذلك تعليمها في مدارس خاصة، وتنمو في قبرص كروم رائعة فوق الجبال العالية، قد تعرضت لأشعة الشمس، وتكون خمور هذه الأعناب في البداية حمراء،لكن بعد مكوثها في جرار فخارية لمدة أربعة أعوام، أو ستة، أو عشرة، أو عشرين، تغدو بيضاء، ومهما كانت المدة التي مكثت فيها طويلة، لن تفقد قوتها، بل تزداد كل يوم، حتى يبلغ

الأمـر أن تسعـة عيارات مـن الماء تضاف بالعـادة إلى عيـار واحـد من الخمر، وإذا ما أقـدم إنسان على شرب دن من تلك الخمرة هو لن يسكر فقط بل ستحترق أحشـاؤه في الداخل وتتمزق، ومع ذلك مفيـد صحياً أن تتناول بعضـاً من هذه الخمـرة من دون مـزج وتشربها على معـدة فـارغـة، ولايوجـد في أي مكان شـاربي خمرة أفضل أو أكثـر تناولاً من الذين في قبرص، وفي قبرص تنمو جميع الأشجـار والأعشاب مثلما تنمو في الأرض المقـدسـة، وكـان في قبرص في أيـامي عـدد كبير من النبـلاء والبـارونات، والفرسـان، الذين تركـوا ألمانيـا، أذكر من هؤلاء: كـونت فيـــاندن Vianden، وكـــونت سكـــاورتزنبيرغ Schwart-zenberg ، ولـورد أوف سيلـد Sleyde، وأمير أوف لختنستين Lichtenstein، وعدد كبير آخر.

يضاف إلى هذا أن جميع الأماكن السـاحلية في تركيا والمناطق المحيطة بها تدفـع الجزية إلى ملك قبرص، والمقصـــود بهذا: كـانـديلور Can-delor ، وسكالنون Scalnun ، وسيكي Sicki ، وأضـاليـا، والأماكن الأخرى والأحواز القريبة منهم، ويوجد في مدينة أضاليا هذه ثلاثة شعـوب من الهراطقـة، والمدينة مقسمـة بأسـوار وخنادق إلى ثلاثة أقسام، ويسكن في القسم الأول منهـا الاغريق، الذين يحافظون على يوم الرب المقدس(الأحـد)، ويسكن في القسم الثاني اليهـود الذين يحافظون على يوم السبت المقـدس، وفي القسم الثـالث الأتـراك، الذين يحافظون على يوم الجمعـة، ويرونه مقـدساً، ويـوجد في القسم الاغـريقي صـورة العذراء مـريم المباركة، مـرسومة على رقيم، ويوجـد في العالم ثلاثة رقم من الشيء نفسه هي: الأول في رومـا، والثاني في القسطنطينيـة، والثالث في أضاليا، وهـم جميعاً بالحجم نفسه، والشكل، والمظهر، ومن المعتقد أن القـديس لوقا قـد رسم هذه الصور الثـلاث مباشرة عن شخص مـريم المبـاركـة، وصـدوراً عن الاحترام لهذه الصـور، صنع الرب كثيراً من

المعجزات هناك، ويحتاج إلى زمن طويل جداً للحديث عن بقية ثراء وجلالة قبرص.

٢٤ — *المدن القائمة على شاطىء البحر*

وفي عودة إلى موضوعي، يبحر الانسان من قبرص، إلى واحدة من المدن القائمة على شاطىء البحر، وذلك إما إلى مصر أو إلى سورية، وهذه المدن هي كمايلي: الاسكندرية، طرابلس، بيروت، جبيل، يافا، صيدا، صور، وعكا، وقبل المضي أكثر سوف أتحدث بعض الشيء حول هذه المدن، حتى يمكنك أن تتعرف إليهم، وهم جميعاً أعطيوا أسماء مختلفة عن الأسماء التي حملوها في الماضي، وذلك بعدما فقدت الأرض المقدسة واستردت كثيراً من المرات، ولذلك سوف أتحدث قليلاً عنهم حتى تعرف بحصة من وقعت هذه المدن عندما استولى عليها الصليبيون.

وعليك أن تعرف أن ما من واحدة من هذه المدن تبعد أكثر من سفريوم واحد عن قبرص، واعلم أولاً أن الاسكندرية هي المدينة البحرية الأولى لمصر، وواحدة من أحسن مدن السلطان، وهي قائمة من الجانب الأول على نهر النيل، الذي هو نهر الفردوس، والذي يصب في البحر بجوارها، ويقع جانبها الآخر على شاطىء البحر، وهذه المدينة فائقة الجمال وحصينة، ومحاطة بأبراج عالية وبأسوار تبدو أنها لاترام، وقد سكنت فيما مضى من قبل المسيحيين، وأما الآن فهي مسكونة من قبل المسلمين، وهي في الداخل في غاية النظافة، فهي كلها مغسولة ناصعة، ويوجد في قرنة كل شارع نبع ماء يجري خلال أنابيب، وجرت المحافظة على نظافة المدينة بكل عناية من قبل مراقبين، الذين واجبهم هو منع رمي أية أوساخ في الشوارع أو بالينابيع من قبل أي إنسان، ويبقي السلطان في هذه المدينة على جنود مرتزقة مع حرسه الشخصي، حيث يتولون حراسة المدينة مع الميناء، وكان القديس مرقص الانجيلي

بطريركاً في هذه المدينة، وقد استشهد هناك، وخلافة له مايزال هناك بطريرك مسيحي فيها، وفي هذه المدينة مايزال قائماً حتى هذا اليوم كثيراً من الكنائس الأخرى، فيهم ترقد أجساد كثير من القديسين، ويوجد هناك كثيراً من المسيحيين والتجار يعيشون فيها، وتبدو هذه المدينة بالنسبة للعين البشرية أنها لاترام، ومع ذلك من السهل الاستيلاء عليها، وأنا لا أجرؤ على قول المزيد حول هذه المسألة.

ومدينة الاسكندرية هذه، التي عرفت بالقديم باسم الاسكندرية، تدعى الآن باسم اسكندرية، من قبل سكانها، وعلى مقربة من الاسكندرية يوجد الموضع الذي قطع فيه رأس القديسة كاترين، ومن هناك حملتها الملائكة إلى جبل سيناء، على بعد سفر حوالي ثمانية أيام، ويوجد في هذه المدينة كثرة كثيرة من الأماكن المقدسة وأماكن العبادة في تلك المدينة.

وليس بعيداً عن الاسكندرية هناك قرية سكانها جميعاً من المسلمين الحرفيين، الذي يتولون نسج البسط الرائعة بأشكال مختلفة، وببراعة مدهشة غريبة، ويقوم في هذا المكان أو القرية كنيسة صغيرة جميلة، فيها قبو صغير، ومن المعتقد أنه في هذا القبو جرى قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، ومن المعتقد أن هذا القبو كان سجناً، وهو معروف بسبب وضع المكان، حيث أنه قائم على حدود مصر والعربية، ويتولى هؤلاء الحرفيون المسلمون أنفسهم حراسة القبو بعناية فائقة وباحترام كبير، ويقومون بإضاءته بمصابيح وشموع، ويدفع كل واحد منهم حسب قدراته ووسائله بعضاً من دخله الخاص إلى الكنيسة وإلى القبو، لأنهم يعتقدون بكل تأكيد، وأنه قد تبرهن بالتجربة، أنهم إذا لم يحافظوا على الكنيسة بمثل هذا الاحترام، وإذا ما تركوها غير مضاءة لليلة واحدة، سوف تخرج الجرذان من الأرض وستمزق إلى قطع وتتلف جميع البسط المعمولة من قبلهم، ويقولون إنه كلما أظهر أي إنسان المزيد من الاحترام

للكنيسة والقبو المتقدمي الذكر، كلما نجح أكثر في عمله، وكان هذا المكان الذي تقوم فيه الكنيسة الآن يدعى قديماً بالعربية باسم النصرونية(؟) Metharonta .

وأقرب مدينة إلى مصر اسمها طرابلس، وهي قائمة على شاطىء البحر، عند سفح جبل لبنان، وهي منطقة، أعطيت إلى كونت طولوز، بعد استرداد الأرض المقدسة من قبل الصليبيين، وهذه المنطقة أو الكونتية خصبة، ومشهورة بسبب مزروعاتها، ومروجها، ومراعيها، وأعشابها وأشجارها وفواكهها، وهي بذلك أكثر شهرة من جميع البلدان من حولها، وأعظم جمالاً، ولهذا تدعى دون سواها من البلدان باسم الجنة الثانية، وفيها ما هو محبوب وجميل فوق تصور البشر وفهمهم، وجرى تدمير هذه البلاد أوالكونتية المكونة من الحدائق بوساطة سيل تدفق من ذرى الجبال العالية للبنان، وذلك باندفاع مخيف، حتى أن صوته كان يمكن سماعه عن بعد أكثر من ميل، والذي كان واقفاً إلى جانبه صار أطرشاً لمدة تزيد على ثلاثة أيام، ومثل هذا هناك بئر ماء يجري خلال هذه المنطقة أو الكونتية، كما وينبع هناك نبع يتدفق دوماً من الأرض المنبسطة، ولم يتناقص قط بكمياته أو شكله، وهو في جميع الجوانب مثله مثل النبع الموجود في مدينة بادربورن، والذي يدعى باسم بادر Padere، وبمياه هذين الجدولين، أي النبع والبئر تتم سقاية جميع الأرض، وهذين هما الجدولين اللذين نقرأ عنهما في[نشيد الانشاد:٤/ ١٥]:«ينبوع جنات بئر مياه حية وسيول من لبنان».

وعليك أن تعرف أن جبل لبنان جبل طويل جداً، وهو في بعض الأماكن مرتفع كثيراً، وباعتقادي هو يشبه من جميع الجوانب الجبل الموجود في هذه المناطق واسمه اوسننغ Osning ، ويمتد جبل لبنان من بداية أرض الميعاد بعيداً حتى كليكيا، وهو جبل مليء بأجمل الأشجار، وأطيب الفواكه، والحشائش ومما يمكن لقلب الإنسان أن

يتصـوره، والجبل كـذلك مليء بما لايحصـى من البلدات والقـرى، فيهـا جميعاً يسكن مسيحيون، يسيرون وفق الطقـوس اللاتينية، وهم يتطلعون شوقـاً يومياً لقـدوم المسيحيين(بحملة صليبية)، ولقـد رأيت عدداً كبيراً من أساقفتهم يسيرون وفق الطقوس اللاتينية.

وعليك أن تعلم أن البلاد التي يصل إليهـا هذا الجبل، قد عرفت فيما مضى باسم كليكيـا، لكنهـا تعـرف الآن باسم أرمينيـا الصغـرى، لأن الأرمن استـولوا على تلك الأرض وانتـزعـوها من المسلمين بالقـوة، وتحاربوا معهم وتخاصمـوا لمدة خمسمائـة سنة بـدون انقطاع، وفي هذه المنطقة تقوم مـدينة طرسوس الجبلية، التي كان القـديس بولس الرسول قد ولد فيها.

وفي عودة إلى مـوضوعي: هناك مـدينة بحرية أخـرى اسمها بيروت، وهي مدينة جميلة وكثيرة السكان، وكانت عندمـا استولى الصليبيون على الأرض المقـدسـة صـارت من نصيب لـورد أوف ستـاركنبيرغ Star-kenberg، وقد ورد ذكـر هذه المدينة لدى الامبراطور جستنيان في مقدمة مختصر مدونته القانونية، ذلك أن دراسة القانون قد ازدهرت فيها فيما مضى، ويقوم في هذه الكنيسة كنيسة جميلـة مكرسة للقديس نيقولا، وهي كنيسـة تحظى باحترام خـاص لدى المسيحيين، وكـان القـديس جورج قد حول هذه الجزيرة إلى عقيدة المسيح، وقتل التنين الذي كانت تعـاني منه، وأنقـذ ابنـة ملك المدينة من التنين، ومجّد البـلاد بكثير من المعجزات، وبئر التنين مـايزال من الممكن رؤيته بوضـوح، ويلتقي جميع الحجاج المتـوجهون إلى القدس مع بعضهـم في هذه المدينة، ويمرون من خلالها.

وليس بعيـداً عـن هذه المدينة، هناك مـدينة أخـرى جيـدة التحصين وقويـة اسمها جبيل، التي آلت بعـد الاستيلاء على الأرض المقـدسة إلى

فـرسـان الداويـة، ويقـرأ الانسـان عن هذه المدينـة في سفـر الملوك(الأول:٥/ ١٨) قوله:«والجبليون وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت»، وكانت هذه المدينة تعـرف وقتذاك باسم بيبلوس، واسمها الآن جبيل.

وليس بعيداً عـن هذه المدينة، تقوم مـدينة أخرى على شاطـىء البحر اسمها يافا، التي ماتزال مسكونـة بشكل جيد، وكان طريق الحجاج فيما مضى يمـرعبر هـذه المدينة، لكن قبل أيامي بوقـت قصير قـام السلطان بتخريب مرسى هذه المدينة، خشية من ملك فرنسا.

ويوجـد على مقـربة من هذه المدينة مـدينتـان أخريتـان جمليتـان هما: الرملة، التي ولد فيها النبي صمـوئيل وعسقلان، وتبعد يافـا سفر ثلاثة أيام عن القـدس، أو مايقارب ذلـك، وهي كونتيـة، وكونت يافـا أيضاً مارشـال مملكة القدس، وصاحب الرملة وعسقلان، وهكذا يذكـر نفسه ومـرتبتـه، وفي أيامي تزوج كـونت يافـا وهنري دوق برنزوك Bruns-wick من أختين.

وليس بعيـداً عن يافـا توجـد مـدينة جميلة جـداً، قائمـة على سـاحل البحر، وهي جيدة التحصين بوساطة خمسـة أبراج جيدة وبأسوار، لكنها مـدمـرة تماماً، واسم هذه المدينة صيـدا، وإثر الاستيـلاء على الأرض المقـدسـة صـارت من حصـة فـارس اسمـه دي نيبـولي Neapoli ، وكانت هذه المدينة تعـرف فيما مضى باسم صيدون، وتدعى الآن باسم ساغيت Sagette .

وعلى مقربة مـن هذه المدينة توجد مـدينة أخرى فـائقة الجمال، وهي بالوقت نفسه جيدة التحصين بوساطة أبراج جيـدة وأسوار، وهي قائمة بمفردها فوق جزيرة في البحـر، واسم هذه المدينة صور، وهي الآن شبه مهجـورة، وكـانت عندمـا جـرى الاستيلاء على الأرض المقـدسـة، قـد

صارت من حصة بلدوين أخو غودفري دي بوللیون، وهذه المدينة التي عرفت فيما مضى باسم Tyre ، تدعى هذه الأيام باسم صور.

ويقوم فيما بين صيدا وصور كنيسة جميلة، بنيت فوق المكان الذي دعت فيه المرأة الكنعانية الرب، ويتحدث الانجيل عن هذا بقوله:«ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية»الخ،[متى:١٥/ ٢١ — ٢٢].

٢٥ — مدينة عكا المجيدة

وعلى مقربة من صور، وعلى مسافة سفر يوم واحد على طول شاطىء البحر، تقوم مدينة عكا المجيدة، التي كانت فيما مضى محط الحجاج، وجميع المسافرين الآخرين، وهي تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن القدس، وقبل المضي إلى أي أمر آخر، لابد من أن أقول شيئاً ما حول مدينة عكا هذه، لكن مع هذا عندما أنظر إلى أوضاعها الحالية أفضل النحيب والبكاء على أي شيء آخر، فأي قلب لن يذوب حزناً، ويستطيع أن يصمد، لدى رؤيته لخراب ولدمار هذه المدينة الجليلة والعظيمة؟ وتقوم مدينة عكا المجيدة هذه — كما قلت — على شاطىء البحر، وقد بنيت بحجارة منحوتة مربعة، حجمها أكبر من المعتاد، مع أبراج عالية وفائقة الحصانة والقوة، ولايبعد كل برج عن البرج الآخر أكثر من مسافة رمية سهم، وذلك على طول محيط الأسوار كلها، ويقوم كل باب من أبواب المدينة بين برجين، والأسوار هناك عظيمة إلى حد يمكن لعربتين أن تمر إحداهما بالأخرى بسهولة فوق أعلاها، كما هو الحال في هذه الأيام، ومن الجهة الأخرى أيضاً، باتجاه اليابسة، المدينة محاطة بأسوار متميزة، وبخندق عميق جداً، وهو مجهز بشكل موائم بغطاسين وعمال ومدافعين وبوسائط موائمة للحراسة.

والشوارع في المدينة في داخلها مرتبة جداً ومنظمة، حيث أن جدران

البيوت كلها لها ارتفاع واحد، وكلها متشابهة البناء من حجارة منحوتة، مزينة بشكل رائع بنوافذ زجاجية ورسوم، وفي الوقت نفسه لم تبن جميع القصور والبيوت في المدينة لمجرد تلبية حاجيات الذين يسكنون فيها، وإنما لتزودهم بالرفاه الانساني وبالسرور والمتعة، وكل قصر متفوق بقدر الامكان على القصر الآخر بتزجيجه، وبرسومه، وبقاعاته، وبوسائل التزيين الأخرى، التي أسس فيها في الداخل، والتي جمّل بها في الخارج، وكانت شوارع المدينة مغطاة بأقمشة حريرية، أوبأقمشة ووسائل أخرى جميلة،لتمنع أشعة الشمس وتبقيها نائية، ولقد قام في زاوية كل شارع برج فائق القوة، محاط بباب حديدي وبأسوار حديدية، وسكن جميع النبلاء في قلاع حصينة وفي قصور على طول الطرف الخارجي للمدينة، وذلك تبعاً لحرفتهم ونوع أشغالهم، وعدّ جميع سكان المدينة، مثل النورمان القدماء، أنفسهم نبلاء، وتصرفوا بذواتهم مثل النبلاء، وذلك مثلما كانوا بالفعل فيما مضى، وأول سكان المدينة هناك ملك القدس وأخوانه مع عدد كبير من نبلاء الأسرة، وأمراء الجليل، وأمراء أنطاكية، والقائد الرئيسي لملك فرنسا، ودوق قيسارية وصاحب صور، وصاحب طبرية، وصاحب صيدا، وكونت طرابلس، وكونت يافا، وصاحب بيروت، وصاحب يبنى، وصاحب بيسان، وصاحب أرسوف، وصاحب فوس Vaus ، ونبلاء تل الصافية.

وكان جميع هؤلاء الأمراء، والدوقات، والكونتات، والنبلاء، والبارونات يسيرون في الشوارع ويعرضون أنفسهم بأبهة ملكية،حيث الزينة الذهبية فوق رؤوسهم، وكل واحد منهم كأنه ملك، ومعه فرسانه، وأتباعه، ومرتزقته، وحاشيته، وثيابه وفرسه الحربي وقد تزين بشكل رائع بالذهب والفضة، وكل واحد منهم كان يتبارى مع الآخر بالجمال وبالابداع والاختراع، وقد اعتنى كل رجل منهم باظهار نفسه وعرضها بعناية فائقة، وكانوا في كل يوم يدربون أنفسهم ويشغلونها

بالمبـارزات، وبالصيـد، وبالمنازلات، وبكـل نوع من أنواع العـروض العسكرية، ولقد اختص كل واحد منهم أو امتاز بقطعة من الأرض إلى جانب قصره أو قلعته.

وسكن هناك أيضـاً من أجل القتـال ضد المسلمين، ولصـالح الايمان الكاثوليكي مقـدم رهبان فرسـان الداوية مع فرسـان مسلحين، وكذلك مقدم رهبان طائفة القديس يـوحنا للقدس، مع فرسان مسلحين، وأيضاً مقدم رهبان بيت طائفة التيوتون مع فرسان مسلحين، ومثل ذلك مقدم رهبـان طائفـة القديـس توماس أوف كـانتربري مع فـرسـان مسلحين، وكذلك مقدم وفرسان طائفة القـديس لعازر مع فرسان مسلحين، ولقد سكن هؤلاء جميعـاً في عكا، وكانت مقـار قيادات طوائفهم هناك، وقـد قاتلوا هم وأتباعهم ليل نهار ضد المسلمين.

وسكن أيضاً في عكا هناك أغنى التجـار تحت قبة السماء، وقد تجمع هؤلاء واحتشدوا معاً هناك من جميع أمم الأرض، فقد كان هناك بيازنة، وجنويين، ولومبـارد، الذين ضاعـت المدينة بسبب خصومـاتهم اللعينة، لأنهم عدوا أنفسهم وتصرفـوا مثل النبلاء، وقطن هنـاك أيضاً تجار على درجة عـالية من الثراء من الشعـوب الأخرى، لأنه من شروق الشمس حتى غيابها كانت تجلب جميع أجزاء الدنيا التجارات إلى ها هنا، وجرت العادة بجلب كل شيء كان موجوداً في العالم ونظر إليه على أنه رائع أو غـريب إلى هذه المدينة، وذلك بسبب النبـلاء والأمـراء الذين سكنوا هناك، وسيحتـاج الأمر إلى وقت طويـل للحديث عن الأمجاد الأخـرى لعكا مع مفـاتنهـا ومحاسنهـا هناك، ولايستطيع أي إنسـان أن يتحـدث بشكل كامل عنهم.

ولقد كـانت هذه مدينة عكا الواسعة الشهـرة، التي عرفت فيما مضى باسم بطوليس، التي جـرى فيها قتل يهوذا(؟) المكابي بشكل خيـاني من قبل تريفـون، وذلك حسبما جاء في سفـر المكابيين، وبالوقت نفسـه هذه

كانت مدينة عكا التي كان فيها وثن بعل زبوب، وكان ذلك في الوقت الذي سقط فيه آحاز، ملك إسرائيل من عليته التي في السامرة فمرض، فقال لخدمه:«اذهبوا واسألوا بعل زبوب إله عقرون إن كنت أبرأ من هذا المرض»؟ وذلك حسبما جاءت الرواية بالتفصيل في سفر الملوك(الثاني:١/ ٢).

٢٦ — فقدان مدينة عكا وضياعها

وبعدما تحدثت عن مجد عكا وجمالها، سوف أتحدث إليكم الآن بشكل موجز عن سقوطها وخرابها، والسبب في خسارتها، وذلك حسبما الحكاية تحكى من قبل رجال مستقيمين وصادقين، وكانوا يتذكرونها بشكل جيد، ففي الوقت الذي كانت فيه الأعمال الكبيرة ماضية في عكا حسبما تحدثت عنها، تفجر بإثارة من الشيطان خلاف في لومبارديا بين حزبي الغولفيين والغيبلينيين، الأمر الذي جلب جميع الشرور على الصليبيين، فاللومبارد الذين كانوا يسكنون في عكا تحزبوا واتخذوا مواقف في هذا الخلاف هي نفسها، ولاسيما البيازنة والجنويين، ذلك أنه لكل واحد من الفريقين كان هناك حزب قوي جداً في عكا.

وعقد هؤلاء الناس معاهدات وهدن مع المسلمين، من أجل أن يتفرغوا بشكل أفضل لقتال بعضهم ضد بعضهم الآخر في داخل المدينة، ولدى سماع البابا أوربان (١) بهذا حزن كثيراً من أجل الصليبيين ومن أجل الأرض المقدسة، وبعث باثني عشر ألفاً من العساكر المرتزقة عبر البحر لمساعدة الأرض المقدسة والمسيحية.

وعندما جاء هؤلاء الرجال عبر البحر إلى عكا، لم يفعلوا شيئاً مفيداً،

١ — حكم أوربان الرابع من ١٢٦١ حتى ١٢٦٤، وعلى هذا لايمكن لهذه الأحداث أن تكون قد وقعت في أيامه، والمقصود هنا هو جيروم دي أسكولي الذي حكم باسم نيقولا الرابع ١٢٨٨ — ١٢٩٢ .

بل أقاموا ليلاً ونهاراً في الحانات وفي الأماكن سيئة السمعة، واعتقلوا التجار ونهبوهم وفعلوا الشيء نفسه مع الحجاج في المناطق العامة، وخرقوا المعاهدة، واقترفوا كثيراً من الشرور.

ولدى سماع الأشرف خليل سلطان القاهرة بهذا، وكان قد عرف بالصراع الكريه بين سكان عكا، وبما أنه كان رجلاً حكيماً جداً، و في غاية القدرة والقوة العسكرية، وشجاعاً في أعماله، دعا إلى اجتماع عام لمستشاريه، كما عقد مجلساً عاماً للشورى في القاهرة، حيث تشكى بأن الهدنة قد خرقت مراراً وتم تجاهلها، مما ألحق الضرر به وبشعبه، وبعد نقاش عقد حول هذه القضية، حشد جيشاً عملاقاً، ووصل إلى مدينة عكا دون أن يلقى أية مقاومة، وذلك بسبب خصامات الفرنجة مع بعضهم بعضاً، وقام بقطع جميع الكروم وأشجار الفاكهة، وشعث جميع البساتين والحدائق التي كانت جميلة وممتعة هناك، وعندما رأى مقدم الداوية هذا، وكان رجلاً حكيماً جداً، وفارساً شجاعاً خشي من أن سقوط المدينة بات وشيكاً، بسبب النزاعات بين سكانها، فعقد اجتماعاً مع رهبانه حول إيجاد طريقة، يمكن بها إعادة السلام، وخرج من المدينة لمقابلة السلطان، الذي كان صديقاً خاصاً به وقريباً منه كثيراً، ليسأله عما إذا كان من الممكن بأية وسيلة من الوسائل إعادة العمل بالهدنة المخروقة، وقد حصل على هذه المطالب من السلطان، وكان ذلك بسبب حبه للسلطان، والتقدير الذي أبداه السلطان نحوه، وبات من الممكن إعادة العمل بالهدنة المخروقة شريطة أن يدفع كل إنسان في عكا بنساً بندقياً، وعلى هذا كان مقدم الداوية مسروراً، وترك السلطان، ودعا جميع السكان، وألقى فيهم موعظة في كنيسة القديس الصليب، وبين لهم كيف أنه بالتماساته، تمكن من إقناع السلطان، بالموافقة على إعادة العمل بالمعاهدة المخروقة، بأن يدفع كل واحد من الشعب بنساً بندقياً واحداً، فبذلك يمكن تسوية كل شيء وإعادته إلى السكون، ونصحهم بكل

وسيلة بأن يفعلوا ذلك،وأوضح أن الصراعات بين سكان المدينة يمكن أن تجلب أسوأ الشرور على المدينة، لابل أكثر من هذا، وهذا ما وقع بالفعل.

لكن عندما سمع الناس هذا، صرخوا بصوت واحد، بأنه كان خائناً للمدينة، وأنه كان مجرماً يستحق الموت، وعندما سمع المقدم هذا، غادر الكنيسة، وبصعوبة نجا حياً من أيدي الناس، وحمل جوابهم إلى السلطان، وعندما سمع السلطان هذا — وكان يعلم أنه بسبب النزاعات بين الناس ما من أحد منهم، سوف يقدم أية مقاومة — أمر بنصب خيمة، وأقام ستين آلة، وحفر كثيراً من الانفاق تحت أسوار المدينة، وهاجم المدينة لمدة أربعين يوماً، ليلاً ونهاراً، بدون توقف، بالنار، والحجارة، والسهام، حتى بدا الهواء يابساً من كثرة السهام، ولقد سمعت واحداً من الفرسان الصادقين جداً يقول بأن جميع الحراب التي كانت على وشك الرمي بها من أحد الأبراج بين المسلمين، قد عطلت بوساطة نشاب المسلمين، قبل أن تترك يده، وكان آنذاك في جيش السلطان ستمائة ألف رجل مسلح، كانوا مقسمين إلى ثلاث مجموعات، وعلى هذا كان هناك دوماً مائة ألف تولت حصار المدينة، وعندما كان هؤلاء يشعرون بالتعب، كانت مائة ألف جديدة تأخذ مكانهم، وهكذا دواليك، ومثل هذا وقف مائتا ألف أمام أبواب المدينة جاهزين للقتال، وكان واجب المائتي ألف المتبقين تزويدهم بكل شيء كانوا يحتاجون إليه، ولم تكن الأبواب مغلقة ولم تغلق أبداً، ولم تكن هناك ساعة من النهار من دون بعض القتال الحاد،الذي قاتلوا به ضد المسلمين، وذلك من قبل الداوية وفرسان الطوائف الأخرى التي كانت مقيمة هناك، لكن أعداد المسلمين تزايدت بسرعة فائقة، فبعد مقتل مائة ألف منهم حل محلهم مائتي ألف جدد، ومع هذا ما كان الفرنجة ليفقدوا المدينة، أمام هذا الحشد كله، لوأن أحدهم عاون الآخر بإخلاص، ذلك أنهم

عندما كانوا يحاربون خارج المدينة،كانت فئة ما تهرب وتترك الفئة الأخرى لتواجه القتل، أما في داخل المدينة فإن إحدى الفئات كانت تتأبى الدفاع عن قلعة أو قصر يعود إلى فئة أخرى، لابل أكثر من هذا كانت عن قصد تترك قلاع الفئة الأخرى، وقصورها، وحصونها، يجري اقتحامها والاستيلاء عليها من قبل الأعداء، وكان كل واحد همه أن يعرف أن قلعته، وموضعه قوي حصين، ولايهمه قلعة أو حصن أي إنسان آخر.

وفي أثناء هذه الفوضى دافع مقدمو الطوائف مع فرسانهم عن أنفسهم، وقاتلوا دونما توقف ضد المسلمين، وذلك حتى قتلوا كلهم تقريباً، وفي الحقيقة سقط مقدم ورهبان طائفة التيوتون مع أتباعهم وأصدقائهم، أمواتاً في وقت واحد، وساعة واحدة كانت هي نفسها.

واستمر هذا، وجرت عدة معارك، ووقع عدة آلاف قتلى على كل طرف من الطرفين، وحل أخيراً وقت الجزاء بالنسبة لذنوبهم، واقترب موعد سقوط المدينة، وحلّ مع مجيء اليوم الأربعين للحصار، وكان ذلك في سنة ألف ومائتين واثنتين وتسعين(الصحيح: إحدى وتسعين) لتجسيد ربنا، وفي اليوم الثاني عشر من شهر أيار، في هذا اليوم جرى الاستيلاء على مدينة عكا، المدينة الأكثر جلالة ومجداً، والتي هي زهرة، ورئيسة، وفخر جميع مدن الشرق، وعندما سمع سكان المدن الأخرى، أي مدن: يافا، وصور، وصيدا، وعسقلان، بهذا تركوا جميع ممتلكاتهم خلفهم، وهربوا إلى قبرص.

وعندما استولى المسلمون على عكا أولاً، دخلوا إليها من خلال ثغرة أحدثوها في السور على مقربة من قلعة ملك القدس، وبعدما صاروا بين الناس في داخل المدينة، ظلت كل فئة تتأبى تقديم المساعدة للفئة الأخرى، بل تابعت كل فئة الدفاع عن قلعتها وقصرها، وواجه المسلمون حصاراً أكثر طولاً،وتوجب عليهم القتال بتقدم أقل، وهم في

داخل المدينة، من تقدمهم عندما كانوا في خارجها، لأنها كانت محصنة بشكل مدهش.

وفي الحقيقة جاء في أخبار سقوط عكا، أنه بسبب ذنوب الناس، قاتلت العناصر الأربعة، إلى جانب المسلمين، فأول كل شيء صار الهواء كثيفاً إلى درجة الظلام، وصار الجو متلبداً مغيماً، إلى حد أنه أثناء اقتحام إحدى القلاع، أو أحد القصور، أو الحصون، أو إحراقه كان من الصعب على الناس الآخرين رؤية القلاع الأخرى والقصور، حتى يجري مهاجمة قلاعهم وقصورهم، وللوهلة الأولى كان بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد، لو أنهم استطاعوا أن يتوحدوا، وقاتلت النار ضد المدينة لأنها ابتلعتها، وقاتلت الأرض ضد المدينة لأنها شربت دماء أهلها، وقاتلت المياه ضد المدينة، لأن الشهر كان شهر أيار، ففي هذا الشهر اعتاد البحر على أن يكون هادئاً جداً.

وعندما رأى أهل عكا بوضوح أنه بسبب ذنوبهم، وظلام الهواء، لم يعد بإمكانهم رؤية أعدائهم، هربوا إلى البحر، راغبين بالابحار إلى قبرص، وفي البداية لم يكن هنالك ريح مطلقاً في البحر، لكن ما لبث أن ثارت عاصفة كبيرة، حالت دون أية سفينة سواء أكانت كبيرة أم صغيرة من الاقتراب من الشاطىء، وكثير ممن كانوا قد شرعوا بالسباحة نحو السفن قد غرقوا، ومهما يكن من أمر، لقد نجا إلى قبرص أكثر من مائة إنسان.

ولقد سمعت من سيد صادق جداً، ومن رجال آخرين موثوق بهم، كانوا آنذاك حضوراً، أن أكثر من خمسمائة من أكثر السيدات نبلاً، ومن الفتيات، ومن بنات الملوك والأمراء، انحدرن نحو شاطىء البحر، عندما كانت المدينة على وشك السقوط، وكن قد حملن معهن على صدورهن أدوات زينتهن من الذهب والحجارة الكريمة التي لايمكن تقدير ثمن لها، وصرخن، ونادين، وسألن هل هناك أي بحار يتولى أخذ

جواهرهن جميعهـا، واختيار أية واحـدة منهن أن تكون زوجة له، شرط أن يأخـــذهن، ويحملهن، ولوعـــاريات إلى أي بلد أمين أو جـــزيرة، واستقبلهن جميعـــاً أحـد البحـــارة في سفينتـه، وأخـــذهن وعبر بهن إلى قبرص، مع جميع أمتعتهن مقابل لاشيء، وذهـب بحال سبيله، لكن من كان هو، ومن أين جاء، وإلى أين ذهب، ما من إنسان يعرف حتى هذا اليوم،هذا وتعـرض عدد كبير جداً من سيدات نبيـلات أُخر وفتيات إلى الغـرق أو القتل، ويحتـــاج الأمـر إلى وقت طويل للحـــديث عن الحزن الكبير والآلام التي كانت هناك.

وعندما كان المسلمون في داخل المدينة — إنما قبل استيلائهم الكامل عليها — استمر القتال من قلعة إلى قلعة، ومن مكان إلى مكان حصين آخر، وبذلك هلكت أعداد كبيرة من الناس على كلا الجانبين، حتى أنهم مشوا فـوق جثثهم، وكأنهم يسيرون فـوق أحد الجسـور، وبعدمـا جرى فقـدان جميع المدينة الداخلية، هرب الذين بقيـوا أحياء إلى قلعـة الداوية التي كـانت حصينة جـداً، وقـد جـرى حصـارها على الفـور من جميع الجهات من قبل المسلمين، ومع ذلك دافع الصليبيون عنها بشجاعة لمدة شهـرين، وسقط أمـامهـا جميـع أعيـان وقـادة جيش السلطان قتلى، لأنه بعدما جرى إحراق المدينة القائمة بين الأسوار كلها، بقيت أبراج المدينة وقلعة الداوية،التي كانت في داخل المدينة، ولذلك تمكن أهل المدينة من إبقاء المسلمين داخل المدينة، ومنعـوهم من الخروج منها، مثلما فعلوا من قبل حين حالـوا دون دخولهم إليها، وظل الحال هكذا حتـى لم يبق أحد من المسلمين الذيـن دخلوا إلى المدينة أحيـاء، ذلك أنهم جميعـــاً سقطوا بالنار أو بفعل السيف، وعنـدمـا رأى أعيـان المسلمين أن بقيتهم تمددوا أمـــواتاً، وأنهم هم أنفسهم غير قـادرين على النجـاة مـن المدينة، هربوا لاتخاذ ملاجيء لأنفسهم في الأنفـاق التي كانوا قـد حفروها تحت البرج الكبير، أمـلاً منهم بـأنهم سـوف يجدون طريقـاً للنجـاة إلى الخارج من

خلال السور، لكن الداوية والذين كانوا في القلعة، عندما رأوا أنهم غير قادرين على إيذاء المسلمين بالحجارة وماشابه ذلك بسبب الأنفاق التي كانوا فيها، لغموا ما تحت البرج الكبير العائد للقلعة، وتركوه ينهار فوق الأنفاق وفوق المسلمين هناك في الداخل، وهكذا هلكوا جميعاً سواء، وعندما رأى المسلمون الآخرون الذين كانوا خارج المدينة جميع ما حدث، أسقط بأيديهم تماماً، وعقدوا بشكل خياني هدنة مع الداوية والصليبيين، على شرط أن يتخلوا عن القلعة، مقابل السماح لهم بأخذ جميع مقتنياتهم معهم، وأنه ينبغي تدميرها، وأن يعيدوا بناء المدينة وفق شروط محددة، وأن يعودوا إلى السكن فيها بسلام كما كان الحال من قبل، وصدّق الداوية والصليبيون الآخرون هذا ووثقوا به، وسلموا القلعة وخرجوا منها، ونزلوا من أبراج المدينة، وعندما استحوذ المسلمون بهذه الوسيلة على كل من القلعة وأبراج المدينة، قتلوا جميع الصليبيين سواء، واقتادوا الأسرى إلى القاهرة، وبذلك بقيت عكا فارغة ومهجورة حتى هذا اليوم.

وفي عكا والأماكن الأخرى تم فقدان مايقارب مائة ألف وستة آلاف رجل قتلاً أو أسراً، ونجا من هناك أكثر من مائتي ألف، أما بالنسبة للمسلمين، فقد قتل أكثر من ثلاثمائة ألف، كما هو تماماً معروف حتى هذا اليوم وأمضى المسلمون أربعين يوماً أولاً في حصار المدينة من الخارج، وخمسين يوماً في المدينة في داخلها، قبل الاستيلاء عليها، وشهرين في حصار الداوية.

وعندما سقطت مدينة عكا المجيدة على هذه الصورة، أنشد جميع شعب الشرق لسقوطها أناشيد البكاء والرثاء، مثلما اعتادوا أن ينشدوا على قبور أمواتهم، وبكوا على جمال عكا، وعظمتها، وعلى مجدها، ومازالوا يفعلون ذلك حتى هذا اليوم، ومنذ ذلك اليوم ترتدي النساء المسيحيات — سواء أكن من السادة أو من العاديين البسطاء — ممن

يسكن على الشاطىء الشرقي(للبحر المتوسط) ثياب السواد حزناً، وحداداً، وتفجعاً على فقدان مدينة عكا العظيمة، ومازلن يفعلن ذلك حتى هذا اليوم.

وعمل المسلمون بعد هذا، لعدد كبير من السنين، وبذلوا كل جهد ممكن، لاجتثاث ولتدمير جميع الأسوار تماماً حتى الأساسات، وفعلوا الشيء نفسه بالنسبة للأبراج والقلاع والقصور، خشية من أن يعاود الصليبيون عمارتهم، لكن كان من المستحيل بالنسبة إليهم تمكنهم من تدمير كل شيء واجتثاثه حتى آخر رجل، وهكذا بقيت جميع الكنائس، والأسوار، والأبراج، وعدد كبير جداً من القلاع والقصور، سليمة إلى أبعد الحدود، وإذا ماسمح الرب، من الممكن — بعناية كبيرة — استردادها وترميمها، وإعادتها إلى أوضاعها الماضية.

ويسكن الآن في هذه الأيام حوالي الستين في المرتزقة المسلمين في عكا، بمثابة حامية للمدينة وللميناء، ويؤمن الانفاق على عيشهم من خلال الحرير والطيور، لأنه يوجد في عكا كثير من الدجاج والحمام، إلى حد أن جميع الطيور التي يمكن رؤيتها في المنطقة لايمكن مقارنتها بهم، وهؤلاء المرتزقة لديهم شغف بالألمان، فعندما يلاحظون وجودهم من خلال مظهرهم، يسيرون إليهم مباشرة، ويشربون الخمرة معهم بعمق، على الرغم من أنها محرمة بشريعتهم.

وبهذا أكون قد حدثتكم كيف تم فقدان مدينة عكا المجيدة بسبب الخصام، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، انتقلت جميع أمجاد الأرض المقدسة، وأمجاد ملوكها، وأمجاد أمرائها، وبقية أعيانها، إلى قبرص، وذلك حسبما سمعتم من قبل.

٢٧ — *حول غزة وأشدود*

ولأعد الآن إلى موضوعي: يذهب الانسان من عكا إلى غزة، التي

كـانت فيما مضى مـدينة جميلة جـداً، تابعـة للفلسطينيين، وهي الآن مهجـورة تقـريبـاً، وهـي المدينة التي حطم شمشـوم أبوابها الحديدية، وحملهـا معه إلى الجبل، والمسـافة مـن عكا إلى غزة ثلاثة وعشرين ميـلاً، ويرى الانسان على الطريق الأماكن التالية، لكن قبل المضي بعيداً، أقترح أن أحـدثكم ببعض الشيء حـول مـدن الفلسطينيين، فحول غـزة تقـوم بلاد فلسطين، حيث نرى فيهـا أربع مدن عظيمـة جداً، قـد وجدت فيما مضى، وقد آل الآن مآلها كلها إلى قـرى صغيرة، وذلك باستثناء مدينتان هما: أشـدود وغاث، وعليـك أن تعرف أن البـلاد التي عـرفت من قبل باسم فلسطيا، تعرف الآن باسـم فلسطين، وأن المدينة التي كانت تعرف فيما مضى باسم أشـدود اسمهـا الآن أرسـوف، التي غـالبـاً مـارأيت صـاحبهـا النبيل(بالين دي ايبلن في سنة ١٣٦٨) ، والمدينة التي عـرفت فيما مضى باسم غـاث اسمهـا الآن اسكندرون (جنوب غربي صـور) ، وقد منحها الاسم الجديد بلدوين ملك القـدس، عندما كان يبنيها، ففي هذه المدينة كـان جـالوت قـد ولد، وهـو الذي قتله داود، ومن الممكن قراءة الكثير من العجائب حول هذه المدينة.

ومن هذه المدينة وبجميع الاتجاهـات،نجـد أن جميع المدن، والقـرى، والقـلاع، والأماكن القـائمـة على ساحـل البحر المذكـور، وذلك لعمق أربعة أميـال في داخل اليابسـة، هي جميعاً مشعثـة ومدمرة وبـاقية هكذا حتى هذه الأيام، لأنه بعـدمـا جرى فقـدان الأرض المقـدسة، وسـورية وعكا، ارتأى المسلمـون بأن عليهم الحفـاظ عليهم وتملكهم بسـلام، وأعني بذلك جميع الأمـاكن المتقدم ذكـرها، والمدن، والقرى، والقـلاع، القـائمـة على شاطىء البحـر، إنما في ذلك الوقت كـان شعب غـاث أو اسكندرون قوياً جـداً، ورجالها شجعاناً بارعين باستخـدام السلاح، وفي الحقيقة لقد قيـل بأنه في مثل ذلك المكان الذي امتلك مثل هذه الطبيعة، يلد الرجـال أكثر حـدة وعنفاً من سـواهم من الرجال الآخـرين، وأهل

غـاث هؤلاء أنفسهم مـع أن تعـدادهم قليل، حيث هو أقـل من ألف انسـان، هم نبـلاء وشجعـان، ويعـرفـون جميع الطرقـات في البـلاد مع دروبها، لأنهم اعتـادوا على التجـول هنا وهنـاك، والسـلاح بأيديهم، ويعملون بالأجـرة، ويعـرفـون طبـائع وعـادات المسلمين، والداخل إلى هناك، والخارج من البـلاد، وهـم لايعـرفـون الراحـة، بل يغـدون ذهاباً وإياباً، بشكل مستمـر، في البر والبحـر، وفي الليل والنهـار، ويلبسـون ثياب المسلمين، ويخفـون الأسلحة تحتهـا، وعندما يكونون بين المسلمين يتصرفـون بمثـابة تجار مسلمين، ويدخلـون معهم إلى مـدنهم وقـراهم، ويأكلون ويشربـون مع بعضهم بعضـاً، وعندمـا يجدون أنهم يمتلكون فـرصة جيـدة مواتيـة، يأخذونها ويحرقـون البلدة والقرية، التي صـدف وكانوا بها، ويقتلون المسلمين أو يبيعونهم رقيقاً، وعندما وجد المسلمون أنفسهم غير قـادرين على الوقوف ضـد هؤلاء القـوم، هجروا مـدنهم، وقـراهم، وذهبوا بعيـداً، لكن نادراً مـانجوا، وهكذا فإن جميع الأمـاكن القـائمة على طول سـاحل البحر، والمدن، والقـرى، والأماكن الأخـرى حتى عمق أربعـة أميـال في داخل اليـابسـة، قـد غـدت معـزولة تمامـاً ومهجورة حتى هذا اليوم.

ولقد سمعت من رجال صادقين، كانوا مـوجودين عندما كانت هذه الأمـور تحدث، وسمعت أيضـاً مـايروج بين الناس والحكايات حـولهم التي مـاتزال باقية، أن خـوفـاً عظيما حل بساح المسلمين، بسبب رجـال غاث هؤلاء الذين تقـدم ذكرهم، إلى حد أنه حتى مسافـة سفر ستة أيام بعيـداً عنهم، اعتـادت الأمهـات على تهدئـة أولادهم البـاكين بكلمـة «اسكندرون» فضـلاً عن هذا مـامن رجل يتجـرأ على مقـابلة آخـر على الطريق، لأن شعب اسكنـدرون، لايجعلون انسـاناً أميناً على نفسـه من دون تيقظ وحذر.

وفي عـودة إلى موضـوعي أقـول: على مقـربة من عكا هناك نهر ليس

كبير الحجم اسمه نهر النعامين Belen (نهر بعل)ويجرف هذا النهر نوعاً من الرمل الزجاجي، يحمل من هناك إلى بلدان نائية، وهناك نهر آخر، على أحد طرفي عكا، لايمكن لأفعى أو لأي من الهوام العيش فيه، مع أن بإمكانهم العيش والازدهار على الطرف الآخر، وقد تبرهن أنه إذا ماجرى رمي أفعى عبر هذا النهر تموت مباشرة.

٢٨ — *جبل الكرمل*

وعلى مقربة من عكا أيضاً، على الطرف الأيمن، وعلى بعد ثلاثة أميال، وليس بعيداً عن البحر، يقوم جبل الكرمل، الذي هو أملس وعريض، وعلى غاية من الجمال في الذروة، المزينة بكثير من النباتات والأماكن البهية، وقد سكن هذا الجبل النبي إيليا، وصنع كثيراً من المعجزات وعلى هذا الجبل، حدث أيضاً، حسبما تحدث إيليا، ابتلعت نار من السماء قائد الخمسين، التابع لآحاز ملك اسرائيل، وصلى على الجبل إيليا ودعا أن لاتسقط الأمطار على الأرض، وبالفعل لم تسقط لمدة ثلاثة أعوام وستة أشهر، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك، وعلى هذا الجبل من الممكن أن نرى أنه قد قام فيما مضى دير جميل جداً، بني وكرس على اسم القديسة مريم، ويعرف الرهبان الذين جاءت أصولهم من هناك باسم الكرمليين حتى هذا اليوم، وهم رهبان متسولون، ويمكن للانسان أن يرى أنهم امتلكوا فيما مضى خمسين ديراً في الأرض المقدسة.

ويوجد على أول أطراف الجبل نبع نقي تجري مياهه إلى البحر، ومن مياه هذا النبع اعتاد النبي إيليا على الشرب، ولهذا يعرف باسم نبع إيليا حتى هذا اليوم، وفي مكان آخر عند سفح الجبل يمكن للانسان أن يرى أن مدينة قد قامت هناك، كانت ملكاً للداوية، هي الآن مهدمة تماماً، واسمها حيفا، وليس بعيداً عن هذه المدينة هناك نبع صغير، هو الآن واحد من مصادر نهر الأردن، وعند نهاية جبل الكرمل كان هناك فيما مضى مدينة جميلة هي الآن مهدمة، اسمها زرعين، فهنا أقدمت إيزابل

على انتزاع كرم نابوت ولهذا رميت في المكان نفسه، حسبما نقرأ في سفر الملوك(الأول :٢١)، وعلى مقربة من هذه المدينة سهل مجيدو، حيث قُتل يوشع ملك يهوذا، وليس بعيداً عن جبل الكرمل، وعلى طرف جهة اليسار، قامت فيما مضى مدينة جميلة، هي الآن مهدمة، اسمها الصفورية، وكانت قائمة على رابية، ففيها ولدت القديسة حنة، أم مريم المباركة.

وبعد العبور فوق جبل الكرمل، يقوم الانسان بعبور نهر، كان واحداً من روافد الأردن، ويصل إلى قيسارية فلسطين، التي كان اسمها فيما مضى دور، واسمها الآن قيسارية فلسطين، غير أنها مدمرة كلياً، وقدكان في هذه المدينة كنيسة جميلة، بنيت من خلال بيت كورنيلوس، الذي حوله بطرس إلى الايمان الصحيح، وكانت هذه المدينة نفسها، قد آلت، بعد الاستيلاء على الأرض المقدسة، إلى ملكية فارس من هذه المناطق[بلاد المؤلف] اسمه دي هورن Horne ، وكانت أرملة ختنه حية حتى أيامي، لأنني غالباً ما تحدثت معها حول هذا الموضوع.

وإذا ما سافر الانسان من قيسارية، يصل أولاً إلى ما كان فيما مضى مدينة جميلة، لكنها الآن مهجورة، واسمها قلعة الحجاج(عثليت)، وكانت هذه تعرف بالقديم باسم أرسوف (كذا)، وكانت هذه المدينة قد أعطيت إلى الداوية من قبل غودفري دي بوللیون، الذي كان أول ملك صليبي للقدس، وذلك حفظاً لذكراه نفسه.

وإذا ما سافر الانسان من أرسوف، أو قلعة الحجاج، يصل إلى مدينة جميلة جداً، وهي مليئة بالسكان حتى هذا اليوم، اسمها عسقلان، ويذهب الانسان من عسقلان ليأتي إلى يافا التي هي مدينة قديمة جداً، وجميلة، وهي قائمة على شاطىء البحر، وإلى مرسى هذه المدينة دخل النبي يونه، عندما حاول أن يهرب من وجه الرب، وهي على بعد سفر حوالي اليومين من القدس، لكن الحجاج لايستطيعون النزول في الميناء،

وعلى اليابسة، ليس بعيداً عن يافا، تقوم مدينة جميلة، عرفت فيما مضى باسم الرملة، لكن اسمها الآن بعل Bael، وهي قائمة فوق موقع جميل جداً، وبهيج، وممتع، وهي مسكونة من قبل المسيحيين وحدهم، ومن المعتقد أن ما من يهودي أو مسلم يستطيع أن يعيش فيها أو يسكن لمدة تزيد على السنة، وجميع الخمر الذي يشرب من قبل المسيحيين في القدس والأماكن الأخرى يجلب من هناك، وعلى الجانب الأيسر من مدينة الرملة هذه، أوبعل، تقوم مدينة جميلة، حسنة الاسكان، اسمها ديوسبولس ولها اسم آخر هو اللد، وفي هذه المدينة واجه الشهيد المجيد، القديس جرجس الشهادة، وقطع رأسه، وهناك كنيسة فائقة الجمال، حسنة التزيين بأعمال الفسيفساء والرخام، وفي داخلها، في السدة، يوجد المكان الذي جرى إعدامه صبراً فيه، وهو معروض للناس عموماً.

وبعد رؤية هذه الأشياء جميعاً، يصل الانسان أولاً إلى غزة، التي تحدثت عنها بعض الشيء، لأنني تحدثت إليكم بعض الشيء أيضاً عن المدن الأخرى في فلسطين، والمسافة بين عكا وغزة هي سفر أربعة أيام، ويزور الانسان خلال السفر جميع الأماكن المتقدمة الذكر، وبعد سفر الانسان من غزة يصل إلى قلعة اسمها بالعربية دار، وهي آخر مكان في سورية لدى النزول إلى مصر، وإذا ما ذهب الانسان بهذا الاتجاه يخّلف القدس على جهة يساره، وذلك على بعد عشرين ميلاً أو قرابة ذلك، وهذه الطرق ليست طرقاً عامة للحجاج، غير أنها طرق جيدة لرؤية أوائل العربية ومصر، وكل ما هو موجود هناك، ويذهب الانسان من قلعة دار إلى مصر عبر صحراء رملية، وذلك خلال سبعة أيام، وفي هذه الصحراء ليس هناك نقص بأي شيء محتاج، باستثناء الماء، الذي من الممكن حمله في أوعية جلدية على ظهور الجمال، وهناك في نهاية سفر كل يوم يمكن العثور على نزل إسلامية جيدة، حيث يجد فيها الانسان

كل ما يحتاجه، باستثناء الخمر.

٢٩ — حول مصر

وبعد عبور هذه الصحراء يدخل الانسان إلى مصر، ولدى دخوله إليها يجد فيها أماكن على درجة عظيمة من الجمال والبهجة، مليئة بجميع الأشياء الجيدة، التي يمكن لقلب الانسان أن يتصورها، وهي مليئة بكل شيء يحتاجه الانسان إلاّ الخمر، ولدى متابعة السفر نحو باب اليون(بابل الجديدة — الفسطاط) يصل الانسان إلى قرية جميلة جداً وممتعة اسمها بلبيس، وبذلك يخلف الاسكندرية ودمياط على ساحل البحر، وإذا فعل ذلك يذهب الانسان على طول الطريق السلطاني العام، فيصل إلى القاهرة وباب اليون، التي تضم الآن مدينتين عظيمتين جداً، ليستا بعيدتان عن بعضهما، وتقومان على طرف النيل، نهر الفردوس، والمدينة التي كان اسمها فيما مضى قاهرة، تدعى الآن القاهرة، وسكن في هذه المدينة في القديم فرعون، عندما تولى تعذيب العبرانيين، وهنا أيضاً آيات ومعجزات، صنعت من قبل موسى وهرون، حسبما جاء بالتوراة، وعلى مقربة من القاهرة، فوق الجبل، الذي هو ليس عالياً، لكن صخري، يقوم قصر السلطان، ويوجد هناك أشياء كثيرة جداً غريبة وعجيبة، وأهم شيء يراه الانسان في هاتين المدينتين، هو الفيلة، وحيوانات الغرفين Gryphons وعليك أن تعرف أن القاهرة أكبر من باب اليون(الفسطاط) وتبعد أكثر من رميتي سهم عنها، ذلك أن باب اليون قائمة على ضفة النيل، لكن القاهرة، قائمة على مسافة لابأس بها عن النيل، والقاهرة الآن أكبر من باب اليون، لأنني سمعت من تجار قدروا أن القاهرة أكبر من باريس بسبع مرات، وفي القاهرة أبنية منخفضة مثل الأفران، ويوجد فيهم مدافىء، ويوضع في الداخل بيض فوق روث، وبوساطة هذه الحرارة تفقس الفراخ، وتخرج من البيض، ووقتها يأخذ المعلم هذه الفراخ، ويعطيها إلى امرأة عجوز، تتولى

العناية بهم وإطعامهم، وتضعهم في صدرها، مثلما تضع الدجاجة الفراخ تحت جناحيها، ويوجد في هذه المناطق أعداد لاتحصى من العجائز ليس لديهن أسباب ووسائل للعيش سوى تربية الفراخ والعناية بهم، ولهذا السبب تجد الطيور هناك كثيرة مثل عدد رمال البحر، وغالباً ما يقوم أحد الفلاحين بسوق خمسة آلاف طير إلى السوق مرة كل أسبوع، مثلما يفعل الراعي حين يسوق أغنامه، ويأخذ معه جملاً أو دابة أخرى مع سلال، يتولى ملأها بالبيض الذي تبيضه الطيور وهي على الطريق، وعندما يأتي إلى السوق المخصص للطيور، لايفقد ولاطيراً واحداً، كما لاتمتزج طيور إنسان مع طيور إنسان آخر، وهذا أمر بالحقيقة مدهش، وخاصة عندما تلتقي آلاف كثيرة من الطيور في مكان واحد، فضلاً عن هذا يوجد على مقربة من باب اليون مكان خصب جداً، فيه مراعي غنية جداً، واسم هذا المكان غوشن Goshen ، فهناك سكن البطريرك يعقوب، بناء على توجيه من يوسف، وكان ذلك في أيام فرعون، فهذا ما رواه الكتاب المقدس لنا.

٣٠ — *حول بستان البلسم*

فضلاً عما تقدم، يوجد على مقربة من القاهرة، باتجاه الصحراء السورية، بستان البلسم، الذي هو من حيث المساحة نصف رمية حجر، وليس مسوراً بشكل جيد، أو كله مسيج، ويوجد في هذا البستان خمسة آبار، تتولى سقاية شجيرات وفروع البلسم، ولكل شجرة أو شجيرة حارس خاص، يتولى تنظيفها، والعناية بها وغسلها، بعناية تامة مثلما يتولى غسل جسده، ولاتنمو شجيرات أو فروع البلسم كثيراً، حيث لايتجاوز طولها الذراعين، ولها أوراق مضاعفة ثلاث مرات، ولدى بداية آذار، عندما يحل وقت النضوج ويصبح قريباً جداً، تصبح العناية بها أكثر، وعندما تصبح ناضجة، يجري قطع الأغصان والفروع وجرحها، وذلك مثل عملية تقليم الدوالي، ويجري ربط الجروح أو

الأماكن المقطوعة بقطع من الموصلين، ومن أماكن الجروح والقطع يبدأ البلسم بالتقاطر، مثلما يسيل الماء من الدوالي، ويترسب في قطع الموصلين المربوطة حول الجروح، ويجري تعليق كأس من الفضة تحت كل غصن مجروح، حيث فيه تتقاطر أفضل أنواع البلسم.

وعلى هذا تقطع الأشجار عندما يسيل البلسم، وفي ذلك الوقت يكون سلطان القاهرة مشغولاً جداً، حيث يكون شخصياً حاضراً في البستان، ويتولى حراسته بدقة، حتى لايتمكن إنسان، إلاّ هو، من الحصول على نقطة من البلسم بأية وسيلة من الوسائل، وعندما يقدم نواب البابا، وسفراء بعض الملوك والأمراء من مناطق أجنبية، يعطي كل واحد منهم قارورة صغيرة من الزجاج، صنعت خصيصاً لهذه الغاية، ويكون في داخل هذه القارورة بعض البلسم، ولدى تقديم هذه الهدية، كان يعتقد أنه يعطي أثمن هدية يمكن أن تعطى.

وبعدما يتم ترسيب جميع البلسم الجيد والحقيقي بهذه الطريقة، يقوم الأوصياء على الأغصان بقطعها حتى نهاية كل واحد منها، ويأخذ كل واحد حصته، ويتولى غليهم بالماء، ووقتها نجد كل الذي بقي من بلسم في نهايات الأغصان يذوب مثل الدهن، ويطوف على وجه الماء مثل الزيت، ومن هناك يجري جمع هذا البلسم بملعقة، ووضعه في وعاء، ثم تركه حتى يتماسك، وذلك لبعض الوقت، ويلاحظ أنه حتى هذا البلسم له ثمن مرتفع جداً، ولأن هذا البلسم قد تعرض للغلي، يغدو لونه أحمر مع بعض المزيج من الأسود، غير أن البلسم الطبيعي الذي يتقاطر بشكل طبيعي، له لون النبيذ، وعليك أن تعرف أن البلسم الطبيعي هو أغلى جوهرة في العالم، ولهذا السبب نجد البطاركة المقدسين، كانوا قد اعتادوا على مزجه بزيت مقدس من أجل المسح، وأي جسد لامس بلسماً طبيعياً، لن يتعفن ولن يفسد مطلقاً، وفي أثناء تقاطره طازجاً من الشجرة، إذا وقعت نقطة بيد إنسان، فهي سوف تسيل من خلال

الطرف الآخر، وتمر عبر يده، فضلاً عن هذا، إذا ما جرى وضع أربع نقاط أو خمس من البلسم الطبيعي في عين إنسان، على وشك أن تصبح عمياء، من انعدام الرطوبة، أو تقدم السن، أو أي ضعف آخر، ستبقى هذه العين على الفور، وإلى الأبد، تماماً مثلما كانت لحظة صب البلسم فيها، ولن تتحسن أوضاعها ولن تتدهور، وعلى هذا إنها لمغامرة خطرة أن يحاول الانسان مثل هذا، ما لم يكن الانسان يائساً كلياً من بصره، وهذه الحقيقة واضحة مرئية في عدد كبير من أجساد رجال عظماء من العصور القديمة، التي تمّ العثور عليها سالمة تماماً غير فاسدة، لأنهم جرى دهنهم بالبلسم، ومثل هذا إذا كانت ندبة جرح جديد، عندما يكون قد بدأ ليشفى، إذا مسحت في أحد الأيام بنصف نقطة بلسم، وضع على ريشة، يعود على الفور جلد الجرح كما كان من قبل، ولا يترك أثراً، وما من إنسان يستطيع أن يرى أنه قد كانت هناك آثار ندبة على الاطلاق في ذلك المكان.

وزيادة على ما تقدم، إن البلسم المغلي هذا، هو عقار ممتاز جداً، وهو مفيد جداً من أجل ندب الجروح كما تقدم القول، وهو مفيد جداً بشكل خاص، عندما يسقط إنسان من مكان مرتفع، لأنه إذا ما تناول بعضاً منه، فإن جسده، الذي كان محطماً في الداخل، سوف يعود سالماً ثانية، وللبلسم المغلي أيضاً قدرة عظيمة جداً على العيون، وهو مفيد بدهن اللحوم حتى لاتفسد، ولكنه في جميع الأحوال وبالإجمال أقل قوة من البلسم الطبيعي، لأنه استخرج بالقوة بوساطة الغلي، في حين ترسب البلسم الطبيعي بشكل عادي.

وعليك أن تعرف أن الرجال المسيحيين فقط وحدهم قادرون على العناية ببستان البلسم ورعايتها، لأنه إذا ما حاول رجال آخرون العناية بها ورعايتها، فإنها تذبل على الفور وتموت، كما حدث مراراً وتبرهن على صحته، وسكنت مريم العذراء المباركة مع الطفل عيسى في

الموضع الذي تقـوم فيـه بستـان البلسم الآن، وذلك عندمـا هربت إلى مصر من أمام هيرود، وغسلت بشكل مستمـر أغطيتها ومـلابس يسوع في الآبار التي تسقي البستان، ولهذا السبب من المعتقد بشكل صحيح أن البلسم ينمو هناك، لأنه بقـدر مانعلم لايوجـد البلسم في أي مكان آخر في العالم.

وسـوف يقتضي الحال وقتـاً طويلاً للحـديـث حـول فضـائل البلسم الأخـرى وأمجاده، يضـاف إلى هذا أنني لاأستطيـع أن أتذكـرهم جميعـاً، وكـان في أيامي بين المشرفين المسيحيين أربعـة من الألمان، كـان أحـدهم من شوارتزنبورغ Schwartzenburg ، وكان فيما مضى مرتداً عن المسيحية وكان آخـر بعين واحدة اسمه نيقولا، وكان رجـلاً جيداً جداً، فهـذا ما أكـده الأسرى المسيحيون، وكـان قد أخـذ أسيراً في عكا، لكن السلطان أطلق سراحه بسبب جودته، وجعله حارساً لسلالم قاعة نومه.

٣١ — *المسيحيون والقبور القديمة*

وعليك أن تعـرف أنه كـان في أيامـي في القـاهرة والفسطاط حـوالي أربعة آلاف أسير مسيحي، وذلك دون أن أن نذكر عدد الأطفال، وكان لهؤلاء الرجال ثلاثة بطاركة هناك ، ورجال دين، وكنائس، وآثار مبجلة كثيرة للقديسين، وكان على رأس ذلك، الجسـد الكامل للقديسة بربارة، وهي العذراء التي يتوسل إليهـا في أيامي عدد كبير من الملوك والأمراء، وتقـديراً من السلطان لراحـة الأسرى المسيحيين لم يقبل السلطان بقطع واحـدة من أعضـاء جسـدهـا، ويحتفل الأسرى المسيحيـون هناك بعيـد أمسيـة القـديسـة بربارة، مثلما يحافـظ الناس في هذه الأمـاكن على عيـد القديس مارتن حيث يرسلون إلى بعضهم بعضاً بذور مختلف النباتات.

ويقوم على مقـربة من الفسطاط، على الطرف الآخر من النيل، وذلك باتجاه الصحراء المصرية، كثير من القبور ذات أحجـام مدهشة، من بينها

واحد فائق الجمال بني بحجارة كبيرة مربعة، وبين هذه القبور اثنين، هما ضريحان مربعان كبيران جداً، وقد كانا فيما مضى على درجة فائقة من الجمال، ويوجد على جدار أول واحد منهما كثير من النقوش المحفورة باللاتينية، وبالاغريقية على الآخر، وبالعبرية على الثالث، وبالكلدانية، وبكثير من اللغات غير المعروفة على الرابع، ونقش على الجدار الأول باللاتينية الأبيات الشعرية التالية، وهي محفورة، وليس من السهل قراءتها بسبب قدمها:

Vidi Pyramidas sinete, dulcissime Frater,

Et Tibiquod potui Lacrimas hic moesta profudi.

Et nostri memorem luctus hanc sculpo Querelam -

S(C) it nomen Decimi Pyramidis altra,

Pontics, Comitisque tuis, Trajane, Triumphis,

Lustra Sex intra censoris consulis esse

«وحيداً، يا للأسف، أرى الأهرامات

ولايمكنني غير البكاء، يا أخي العزيز، من أجلك.

ولقد حفرت على الحجر، وأنا حزين، اسمك

ويعرف الأهرام العظيم الآن شهرة

أننيوس دوسيموس، الذي قاتل من أجل روما

مع تراجان، وعاد إلى الوطن منتصراً،

وهو الذي قضى حتى قبل ميلاده الثلاثين

وكان أخيراً، كاهناً أعظم، وقنصلاً، ومراقباً للأخلاق أيضاً».

وأدع تفسير هذه الأبيات إلى فهم القارىء وحكمه، ويطلق السكان المحليون على هذه القبور اسم أهراءات فرعون، وهناك عجائب كثيرة جداً من الممكن رؤيتها على مقربة من الفسطاط، وحسبما سمعت من كثير من الرجال الصادقين والتجار، كانت بابل القديمة، حيث كان يوجد برج بابل، تبعد مسافة سفر ثلاثين يوماً، عن باب اليون هذه، وذلك باتجاه الشمال — الشرقي، وهي في بلاد الكلدان على مقربة من بغداد، وعليك أن تعلم أنني قمت خلال مدة خمس سنوات بالتحدث ليلاً ونهاراً مع كل الناس الذين بإمكانهم التحدث بأي لسان بشري، وبعد البحث يومياً بين مختلف الشعوب، كان الذي حصلته هو بعض المعلومات، وهذه المعلومات لم أستطع تحصيل سواها من أي واحد من المخلوقات حول بابل القديمة، حيث كان برج بابل، ومعلوماتي لاتتجاوز مايلي:

٣٢ — *بابل القديمة، أو بغداد.*

يوجد في بلاد الكلدان الشرقية، مدينة فائقة الجمال، وجليلة، وقوية بلا حدود، وهي في هذه الأيام أفضل المدن في الشرق، اسمها بغداد، وهي قائمة على ضفتي نهر الفرات(كذا) الذي هو واحد من أنهار الجنة، ويقول الذين يسكنون هناك ويعتقدون، أنه على نصف ميل منها، أو ما يقارب ذلك، تقوم بغداد القديمة، وقد تبرهن هذا أيضاً بوجود الخرائب الكثيرة، والأكوام الهائلة من الأبنية من مختلف الأنواع، وكذلك من الحجارة، التي لها مشاهد غريبة عن بعد، لاسيما في الموضع الذي قام فيه برج بابل، حيث اختلفت الألسنة وتبلبلت، وهناك برهان آخر على هذا وجود طريق لايمكن قطعه بين الخرائب، وبين بغداد، وأيضاً بسبب وجود مخلوقات سامة، مع وجود كثير من العلامات التي تظهر بأن بابل القديمة قد قامت هناك، وبسبب ما يعتقده السكان المحليون بشكل ثابت تماماً، فهم يؤمنون أنه بسبب وجود هذه

المخلوقات السامة، انتقلت بابل القـديمة، وأطلق عليها اسم جديد، هو بغداد، ولاأستطيع أن أحكي شيئـاً آخر صادقـاً حول بابل القـديمة، كما أنني لم أعلم أي شيء زيادة، من أي إنسان في هذه المناطق.

ويوجد في مـدينة بغداد الحالية الآن أغنى التجـار وأحسنهم تحت قبة السماء، ولايوجـد في أي مكان من الشرق مثل هذه التجـارات بكثـرتها وتنوعها مما هو مـوجود هناك، واعتـاد أن يسكن في هذه المدينة الخليفة، أي خليفة محمد(ﷺ)، الذي يقدم المسلمون إليه الطاعة في جميع الأمور، مثلما يفعل المسيحيون بالنسبة للبابا، خليفة القديس بطرس.

وسـوف أحدثكم ببعض الأخبـار حـول خسـارة مدينة بغـداد هذه، وذلك حسبما قرأت حول الموضـوع في مصنفات وتواريخ ملوك أرمينيا، وكما سمعت أيضاً من فارس مستقيم صادق كان هناك في ذلك الوقت.

وفي سنة ألف ومـائتين وثمان وستين لتجسيـد ربنـا(كـذا)، وبعـدمـا استولى التتـار على ممالك الشرق، كان آنـذاك هيتوم Ayco ملكاً على أرمينيـا، وقـد قـام بدافع ذاتي بالسفـر إلى الخان العظيم، أي امبراطور التتـار، من أجـل زيارته، واستقبل هيتـوم من قبلـه بلطف، ولأنه أبدى نحـوه احترامـاً ذاتيـاً وتشريفـاً عظيماً، وذلك من أجـل جعل الملوك الآخرين يقـدمون بدافع ذاتي لزيارته ولمقابلته، ولهذا كـان مسروراً جداً، وشرف الملك بإعطائـه كثيراً من الهدايا، وفي تلك الأثناء، وعندمـا كـان ملك أرمينيـا على وشك العودة إلى الوطن، طلب من الامبراطور منحـه خمسـة مطالب، كـان أولاها، وجوب أن يغـدو الامبراطور وشعبـه كله مسيحيين، وثانيها أن يكون هناك سلام دائم بين التتار والأرمن، وثالثها أن يقـوم بتـدمير جميع مسـاجـد محمـد(ﷺ)، وأن يكرسهم على شرف الرب، ورابعها أن يساعده على استرداد الأرض وإعادتها إلى المسيحيين، وخـامسهـا أن يقوم بحصـار بغـداد، وتهديمهـا، وأن يزيل الخليفـة من الوجود، وأعني بذلك خليفة محمـد(ﷺ)، وأن يمحو اسمه، واستجاب

الامبراطور إلى هذه المطالب جميعاً عن رغبة وطواعية، وأكدها، وكذلك نفذها في كل مجال من المجالات، وذلك باستثناء المطلب الرابع الذي أعيق بسبب موته.

أما فيما يتعلق بالمطلب الخامس، الذي هو وجوب تهديم بغداد، وإزالة الخليفة، فقد كلف أخاه هولاؤن(هولاكو)، الذي كان آنذاك قد استولى على بلاد فارس، وأمره أنه ما أن يفرغ من إقرار أمور مملكة فارس، ويؤمن مسألة حمايتها، عليه الالتحاق بملك أرمينيا في حصار بغداد، وقد استجاب لهذا بكل رغبة، وبسرعة ما إن فرغ من إقرار أمور بلاد فارس، حتى نقل نفسه إلى مدينة نينوى العظيمة(الموصل)، واستراح هناك خلال الشتاء، وعندما جاء شهر آذار، ذهب مع ملك أرمينيا إلى بغداد، وحاصر الخليفة، وكلف قادته الأربعة الرئيسيين، الذين كان تحت إمرة كل واحد منهم ثلاثين ألفاً من التتار، بالقيام بحصار بغداد، بدون توقف حتى يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة، وهذا ما تم وجرى تنفيذه، ذلك أنهم استولوا على المدينة في اليوم الثلاثين، وقتلوا جميع السكان من رجل صغير وكبير سواء، وربحوا كثيراً من الأسلاب، من ذهب وفضة، وأحجار كريمة، وأنواع أخرى من الثروات، بشكل ومقدار لم يسمع بأن واحداً حصل على مثله من أية مدينة مهما كانت، وفي الحقيقة صارت بلاد التتار كلها غنية حتى هذا اليوم من هذه الأسلاب، ولايوجد الآن في بلاد التتار كأس واحد من الذهب أو الفضة، إلاّ وجلب إليها من بغداد.

وبعدما جرى قتل جميع السكان أو أسروا، اعتقلوا الخليفة حياً، وقدموه إلى هولاكو، مع جميع كنوزه، التي كانت من الكثرة بمكان، أن هولاكو خشي من النظر إليها والتحديق بها، وقال وهو مندهش مخاطباً الخليفة:«كيف حدث أيها الرجل التعيس، أن امتلكت مثل هذه الكنوز العظيمة التي خشيت حتى من النظر إليها؟ فبها كان بإمكانك أن تقهر

العالم كله، وتضعه تحت نيرك، فلماذا لم تجند ما يكفي من العساكر المأجورة للدفاع عن مدينتك»؟ وأجابه الخليفة قائلاً:«المشورة الفاسدة هي التي جلبت الدمار عليّ، لأنهم قالوا لي : حتى النساء يمكنهن الدفاع عن المدينة ضد التتار»، وعندها قال هولاكو:«إعلم أنك خليفة محمد(ﷺ) والمسؤول عن شريعته، وأنا لاأجرؤ على إلحاق أي أذى بك، كما أنه من غير اللائق أن تعيش أنت وأن تأكل مثل بقية الناس الآخرين، لأنه من فمك تصدر تعاليم شريعة محمد(ﷺ) وعقيدته»، وقد أمر به فوضع في قصر جميل، وصب أمامه الذهب والفضة والحجارة الكريمة، واللآلىء وقال له:«من فمك تصدر تعاليم شريعة عظيمة وعقيدة، ولذلك اللائق بك أن تأكل من طعام ثمين مثل هذا»، وهكذا سجن الخليفة في القصر، وبعد مضي اثني عشر يوماً وجد ميتاً من الجوع، ولم يقم من بعده خليفة لمحمد(ﷺ) في بغداد حتى هذا اليوم.

ويحكم في هذه الأيام امبراطور التتار بغداد، لكن سكانها بشكل رئيسي من المسلمين، وهم يعيشون تحت جزية ثقيلة جداً، وسمعت في هذه المناطق وقرأت كثيراً من الحكايات الحمقاء حول بغداد، وخلاصة ذلك، هو ما حصلت عليه كتابة، من أن ملك بغداد بعث برسائل إلى ملوك هذه البلدان، ودعاهم إلى أجراء منازلات ومبارزات هي زائفة كلها، لأنه ليس هناك من إنسان بإمكانه أن يتذكر منازلات أو مبارزات قد عقدت قط في بغداد، لأن الناس هناك يشغلون أنفسهم بأشياء أخرى.

وعلى مقربة من بغداد وعلى بعد سفر أربعة أيام، توجد مدينة أخرى، كان اسمها سوسة، فيها ازدهر أحاسوروس Ahasuerus ، وهذه المدينة التي كان اسمها فيما مضى سوسة تدعى الآن باسم طوروس Thaurus ، ويوجد في هذه المدينة شجرة جافة، يقال بأنه قد كتب

لامبراطور الرومان أن يعلق ترسه عليها، ويقول سكان هذه المدينة بأن ما من يهودي يمكنه أن يعيش فيها وأن يقيم، وعلى مقربة من طوروس هناك مدينة أخرى اسمها Cambeleth ، هي أيضاً من أملاك امبراطور التتار، ولقد قيل بأن هذه المدينة أغنى وأفضل من جميع مملكة السلطان.

٣٣ — *نهر النيل*

وفي عودة إلى موضوعي: النيل واحد من أنهار الجنة، يجري خلال مصر، ويمر قرب الفسطاط ودمياط، ويصب في البحر المتوسط على مقربة من الاسكندرية، وهو بحر أكبر وأعرض من نهر الراين، وموحل كثيراً، بسبب أنه يجري أحياناً في قلب الأرض، وأحياناً في الجبال، ولايرى مجدداً، لمسافة ميلين أو ثلاثة أميال، ثم يخرج من الأرض ثانية، ويدخلها مجدداً، حتى يصل إلى مصر، حيث يجري بشكل مستقيم، وهو يحتوي على أسماك ممتازة وسمينة، ومياهه مفيدة وصحية تماماً، وعندما تنضح هذه المياه أولاً، تجدها فاترة، ولكن عندما توضع في جرة في الشمس تغدو باردة، وتساعد كثيراً على الهضم، ولم تكتشف ينابيع هذا النهر قط، وذلك باستثناء ماذكرته الكتابات المقدسة حول هذا الموضوع، مع أن محاولات قد جرت مراراً لاكتشافهم، وفي أيامي أبقى السلطان سباحين كانوا قادرين على الحفاظ على أنفسهم في الماء بشكل طبيعي مثل الأسماك، ووعد السلطان هؤلاء الرجال بجوائز كبيرة، إذا ما اكتشفوا نبع النهر، وجلبوا له غصناً أخضر من شجر الصبر Al-ols كعلامة، ومضى هؤلاء السباحون في وقت واحد، ولم يعودوا لمدة ثلاثة أعوام أو أربع سنوات، ومات بعضهم على الطريق، وقال الذين عادوا أن الذي تبين أخيراً أن النهر ينحدر من الجبال بقوة هائلة لم يكن بمقدروهم فعل شيء تجاهها وضدها مطلقاً.

ويوجد في هذا النهر وحش شرير يدعى التمساح، وهو قوي جداً،

وحـاد وسريع، ويسبب كثيراً من الأذى للذين يسكنون على مقـربة منه، وكـذلك لحيـواناتهم، ونظراً للخوف منه، إنـه لأمر خطير الابحـار على ظهر نهر النيل، وهذا الوحش كبير جداً، ولقد رأيت جلد تمساح، يمكن لثور أن يمر من خلاله بسهولة، ولقـد أخبرني واحد من فرسان الداوية أنه حدث في إحـدى المرات أن أمسك الداوية تمساحـاً صغيراً، واقتلعوا أسنانه، وأنهم ربطوا إلى ذيله صخـرة لايستطيع عشرة رجـال تحريكهـا، وقد قـام بجرها لوحده إلى مبنى كـان قيد الاعمار، ومع هذا تراه يُقتل من قبل حيـــوان صغير، يكرهه بشكل طبيعـي، ويتبعـــه حيثما ذهب، ويقـوم التمسـاح بابتـلاعـه مع الأطعمـة الأخـرى، وعندها يقـوم هذا الحيـوان بخـرق قلب التمسـاح ويقتله، وهنـاك أيضـاً حيـوانات شريرة أخرى كثيرة في النيل.

٣٤ — *حول بلاد مصر وأرضها*

وأرض مصر غنيـــة، ولطيفـــة، ومبهجـــة، ومليئة أكثـــر من البلدان الأخرى في العالم بالأشجار، والفـواكه، والأعشاب، والمروج والمراعي، وطولها يساوي سفـر خمسة عشر يوماً، وسفـر ثلاثة أيام بالعرض، وهي — كما أخبرت — مثل جـزيـرة، محاطة بالصحـراء من ثلاثـة جـوانب، ويحدها البحـر الاغـريقي من الجانـب الرابع، وعـرض الصحـراء سفـر سبعة أيام في أضيق الأماكن، ومصر بلاد حـارة جداً، إلى حد أن الشتاء هناك نادراً مـا يمكن تمييـزه عـن الصيف، والورود والأزهار الأخـرى، لاتتوقف عن التفتح، أو نادراً مـا تفعل ذلك، مع أنها لاتمطر هناك أبداً، ولدى سكانها عمودين من البرونز عليهما علامات، وقد وضعوا العمود الأول(المقس) بينهما، وأقامـوه في وسط النيل، على مقربة من الفسطاط، ونصبوا الآخـر في النيل على مقربة من الاسكندرية، وعندمـا ترتفع مياه النهر إلى مستـوى تلمس فيه العلامات على العمـودين، سوف لن يكون هناك خوف لمدة عامين مقبلين، ويقـوم المصريون هناك بسوق مياه النيل

في ترع وأقنية وممرات، ويدفعون المياه للجري حول أرضهم، وحقولهم، وغاباتهم، وبساتينهم، وحدائقهم، التي تزدهر وتحصل على الري في كل جوانبها، وعندما تتم سقاية الأرض على هذه الصورة خلال الليل، فإن القمح والأعشاب سوف تنمو أكثر من عرض كف عند الصباح، ويبقى المصريون في ذلك الوقت يراقبون المياه طوال الليل، ولايغادرون حتى تتم سقاية الأرض.

ويبدأ هذا النهر كل سنة بالازدياد على هذه الصورة في شهر آب، ويزداد كل يوم حتى يوم عيد القديس ميخائيل، وبذلك يجعل من الأرض الأكثر قحطاً، أرضاً مليئة بالبهجة والخصب، وفي أثناء ازدياد مياه النيل يمسك الناس جميع أنواع الأشجار، والأعشاب، ويلتقطون الطيور الصغيرة في النهر، بوساطة شباك، وأكثر ما يجمعونه بشكل خاص خشب الصبر، وطيوراً صغيرة اسمها البط Ponoquets ، لكن من أين تأتي هذه الأخشاب، ما من إنسان عرف بشكل مطلق، ويبدو أن هذه أشجار قديمة قد يبست بسبب السن، وهي تسقط في الماء من الجبال، ويجمعون في ذلك الوقت من النيل خشب السنط أيضاً، الذي يمكن تقطيعه بسهولة مثل الأخشاب الأخرى، لكن لايمكن حرقه، ويجري إمساك طيور البط الخضراء الصغيرة، مع الأغصان والأشجار التي تعيش عليها، وذلك حسبما قيل، ويقول بعضهم أنهم يلدون في جبال جلبوع، وهذا أمر غير صحيح، ويقولون أيضاً أنهم لايتحملون الماء، وهذا أيضاً غير صحيح، لأنهم ينشأون فوق الجزر وفوق المياه، ولقد رأيتهم يسبحون فوق البحر، غير أنهم لايستطيعون تحمل البرد، ولاالطيران أو السباحة لمدة طويلة، ويمتلك نهر النيل هذا جزراً غنية فيه، مليئة بأنواع المزروعات والأشياء الجيدة الأخرى، وفي مصر أيضاً أعداد لاتحصى من الطيور، كما سمعتم من قبل، وهي التي تفقس في الأفران أوتحت أشعة الشمس، ومثل هذا يوجد في مصر

أعداد لاتحصى من الحجل، وذلك أكثر من جميع الطيور في هذه البلاد، لأنه يجلب في بعض الأحيان فلاح أكثر من عشرة آلاف طائر حجل معه إلى السوق، كلهم يطيرون، وعندما يجلس الفلاح يتوقفون جميعاً معه، وعندما يقوم ويصفق بيديه يطيرون جميعاً معه ثانية، وإذا ما أضاع طائراً منهم في بعض الطرقات يصفر في مزماره، فيعود إليه على الفور، وعندما يأتي إلى سوق الدجاج في المدينة، يبيع منهم بقدر ما يستطيع، ويعيد الذين لم يستطع بيعهم معه إلى مقر سكناه، وهناك أعداد لا تحصى هائلة من الحمام التي يمكن أيضاً رؤيتها في مصر، ولاأعتقد أنه يوجد في أي مكان في العالم مثل ما هو موجود من الحمام بمصر وبقدره، ومن المحظور كلياً إمساك الطيور لأن السلطان مع الأمراء الآخرين يرسلون رسائلهم بوساطة الحمام الزاجل، فبذلك يتعرفون في وقت قصير على الأخبار والأسرار للبلدان البعيدة.

ويوجد في مصر أعداد لاتحصى من الغزلان، ومن الماعز، حتى إنه من الممكن رؤيتهم على الطرقات وفي الحدائق مثل الأغنام الأهلية، ومن الممكن إمساكهم وبيعهم من قبل من يمر بهم.

وفي مصر أيضاً، حتى هذه الأيام، كثير من البيع، والديرة، والكنائس، وصوامع النساك، وهي قائمة على حالها، غير أنها مهجورة، ومرسومة بشكل رائع، لكن رسومها قد شوهت بطرق كثيرة من قبل المسلمين، ومثل هذا مايزال يقوم في الصحراء المصرية حتى هذه الأيام كثير من القلايات وصوامع النساك التي تعود إلى الآباء المقدسين، حيث تتوفر في بعض المناطق بكثرة إلى حد أنه انتشر في مساحة ميلين أو ثلاثة أميال(ألمانية) قلايات وصوامع نساك بين الواحدة والأخرى رمية سهم، وفي هذه الأيام كثير منها مسكون من قبل هنود، ونوبيين وسريان، يعيشون في ظل قانون القديس أنطوني مع القديس مكاريوس، وقد صنع الرب في هذه الصحارى عدداً كبيراً من المعجزات على أيدي الآباء

المقدسين، ولاسيما في مكان كان اسمه أخميم، وبشكل خاص على أيدي القديس أنطوني مع القديس مكاريوس، وذلك حسبما جاء الخبر في«حياة الآباء»، ويوجد في هذه الصحراء مكان تحت صخرة طويلة جداً وضيقة، ففي هذا المكان اعتاد القديس أنطوني على السكنى، وينبع من تلك الصخرة هناك وتتدفق مياه جدول صغير لمسافة نصف رمية حجر، حيث تضيع المياه في الرمال، وحالها مثل مياه جارية في الثلج، ولاتشاهد بعد ذلك، ويزار هذا المكان من قبل كثيرين من أجل العبادة والمتعة، ثم إنه بفضل نعمة الرب وتشريفاً للقديس أنطوني يتم شفاء كثير من المرضى حيث يتخلصون من أمراضهم بمياه هذا النبع، ومن المعتقد أن هذه المياه تدفقت من الصخرة استجابة لصلواته، وهذا أمر حقاً صحيح، لأنه من الواضح أنها لاتتدفق أكثر مما فيه كفاية لإعطاء الماء لقلايته الصغيرة، وحديقته المتواضعة، وسوف يحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن بقية أمجاد مصر، وخصبها وجمالها، ويمكنني أن أضيف أن جميع الأغنام والماعز، وما شابه ذلك من الحيوانات يحملن في العام الواحد مرتين، ويلدن في غالب الأحيان توائم لدى كل ولادة.

ويوجد في مصر ثلاث مدن عظيمة جداً،قائمة على جانب النيل، الذي هو نهر الجنة، وهذه المدن هي: الفسطاط، والاسكندرية، ودمياط، ودمياط هذه هي المدينة التي كانت تعرف فيما مضى باسم راغس(وهم وتداخل) وفيما بعد باسم إديسا، والآن دمياط، وإلى هذه المدينة بعث توبيت أوف يور Tobit of Yore ابنه إلى جباعيل[الصحيح بعثه إلى الري قرب طهران]، ورقد في هذه المدينة فيما مضى القديس توما، ومن خلاله صنع الرب كثيراً من المعجزات في المكان نفسه، وكان في هذه المدينة الرسالة التي بعث بها يسوع إلى أبجر، ملك هذه المدينة، ولهذا السبب ما من مهرطق أو كافر استطاع أن يبقى طويلاً فيها، لكن فيما بعد، وبسبب ذنوب الناس، تدنست المدينة، وهكذا آلت في هذه

الأيام إلى لاشيء.

ونقلت المدينة في هذه الأيام بعيداً إلى داخل اليابسة وابتعدت عن النيل، ذلك أنه غالباً ما جرى انتزاعها من أيدي المسلمين، من قبل القديس لويس، ملك فرنسا، ومن قبل صليبيين آخرين، لكن القديس لويس أخذ أسيراً هناك، ولهذا السبب أعيدت المدينة إلى المسلمين، والآن عندما سمع المسلمون أن ما أحد يمكنه العيش في المدينة إلاّ المسيحيين، قاموا بنقل المدينة إلى مكان آخر، صدوراً عن كراهيتهم لهم، والمدينة في هذه الأيام مسكونة بشكل رئيسي من قبل صيادين، ويقدم عدد كبير من التجار إليها مع بضائعهم، ومع سفنهم، ويشترون كميات كبيرة من السمك، بأسعار زهيدة جداً، ويتولون شحن الأسماك إلى جميع أجزاء الدنيا، وهناك عجائب كثيرة أخرى حول هذه المدينة يمكن أن نقرأ عنها.

٣٥ــ حول الصحراء وجبل سيناء

وفي عودة إلى موضوعي: إنه إذا ما سافر الانسان من القاهرة والفسطاط، يصل إلى سيناء في اثني عشر يوما، ففي ستة أيام منها يعبر الانسان على طول الطريق الذي حدثتكم للتو عنه، والذي هو ملىء بالناس، وحيث أن هناك أشياء كثيرة للمشاهدة، ثم يعبر الانسان خلال ستة أيام فوق الصحراء، وعليه أن يحمل معه جميع الأشياء التي إليها حاجة على الجمال وعلى حيوانات التحميل، والمراد بذلك: الخبز، والخمر، والماء، واللحم، والبقسماط، والعنب، والزبيب، والتين، وماشابه ذلك، وفوق ذلك كله فراش للنوم عليه أثناء الليل.

وعليك أن تعرف أن الجمال، التي تعبر هذا الطريق في كل يوم، تعرف تماماً طول سفر اليوم، والمحطات والأماكن المناسبة للراحة، وعندما يصلون إلى هذه الأماكن في المساء يتمددون على الارض

لاجترار الطعام ومضغه، ولايسيرون مسافة أكثر، وبذلك كأنهم يقولون: هذا يوم حقيقي، وهذا مكان للتوقف، وبعد هذا يجري اطعامهم الخبز والأشواك، ومن السهل إطعام الجمل، ونادراً ما يشرب مرة واحدة كل ثلاثة أيام، لأنه إذا ما كان الماء متناسباً مع حجمهم، ما من انسان يستطيع أن يعبر الصحراء معهم.

وبعد عبورك للصحراء تأتي إلى البحر الأحمر، وعليك أن تعرف أن الصحراء ليست سوى ملح وأرض رملية، احترقت وجفت إلى أقصى غاية ممكنة بوساطة حرارة الشمس، ومن النادر أن تجد شيئاً أخضر فيها، وعلى كل حال ليست الصحراء كلها جرداء في جميع الأماكن سواء، وإنه لأمر مدهش وعجيب أنك تجد صخورها وجبالها مالحة جداً، ومع ذلك هناك ينابيع متفجرة فيها مياهها عذبة جداً، وهي ممتازة جداً للشرب، ويوجد الى جانب هذه الينابيع حشائش وأعشاب، وأشياء خضراء مماثلة، ويجد الانسان على مقربة منهم آثار أسود، وتنينات، وحيوانات مفترسة خطيرة أخرى، وهناك بشكل خاص أرانب برية، وعندما يعبر الانسان هذه الصحراء في ستة أيام، ويشاهد ما فيها من عجائب، يصل إلى البحر الأحمر، كما تقدم بنا القول، وذلك إذا كان قادماً من الفسطاط.

وفي البحر الأحمر أسماك رائعة بكميات كبيرة، ومياهه ليست حمراء بل الأرض، مع قعره هناك لها لون أحمر، وتبدو المياه للناظر إليها حمراء، أي للمحدق نحو الأسفل، وذلك بسبب احمرار القعر، لكنها عن بعد لها اللون نفسه مثل المياه الأخرى، ومياهه نقية جداً وصافية، ولذلك من الممكن رؤية بنس مرمي على قعره من مسافة عشرين غلوة، هذا وإنه بسبب احمرار قعره وصفاء مائه، يبدو مثل أصفى نبيذ أحمر، ويجد الانسان فيه كثيراً من المرجان، وأيضاً كثيراً من الأحجار الكريمة والأشياء الأخرى، مرمية على شواطئه.

والبحر الأحمر قائم في العربية، وجميع أراضي العربية حمراء، ولهذا السبب فإن الاشياء الحمراء مهما كان نوعها تنشأ هناك فيها وكذلك تلد، وكل شيء هناك أحمر باستثناء الرجال فقط، ولهذا السبب فإن الذهب الخالص يعثر عليه هناك مثل جذور اسطوانية، فضلاً عن هذا يوجد في البحر الأحمر كثيراً من الجزر، فيها تنمو أشجار حمراء من مختلف الأنواع، وبشكل خاص، بين ما يعرف لدينا باسم الشجر البرازيلي Brazil.

والبحر الأحمر ليس بحراً كبيراً جداً، كما أنه ليس طويلاً ولاعريضاً، ولايتجاوز عرضه في المكان الذي عبر منه بنو اسرائيل أربعة أميال أو خمسة، وفي البحر الأحمر هناك قلعة يمتلكها السلطان، فيها مسجون نبلاء أسرى الصليبيين، وفضلاً عن هذا تتولى هذه القلعة الحراسة وتبقى متيقظة، خشية أن يحاول انسان لاتيني، أو رجل من هذه الجهة من البحر، أو واحد ولد في هذه البلدان، العبور بوساطة البحر الأحمر إلى الهند، وذلك خوفاً من أن يجلبوا إلى الوطن أية أخبار عن قوة وأوضاع الشعب في مناطق ماوراء البحر، أو أخباراً عن برسترجون والهنود، أو حمل رسائل منهم، ذلك أنه سوف يكون سهلاً الابحار إلى المحيط والهند من خلال البحر الأحمر، لو أن هذه القلعة لاتقف في الطريق، لكن يمكن للتجار الهنود والتجار المشارقة عبور ذلك الطريق، كلما أرادوا، كما يفعلون غالباً، وعلى كل حال إنني أعرف أساقفة ونبلاء اعتادوا على الدوام على ارسال تقارير عن هذه المنطقة من الشرق، مع جميع أنواع الأخبار، عبر البحر الأحمر إلى برسترجون، ولقد اعتاد رجال هذه القلعة على صنع شباك من أوتار الجلود ورميها في البحر، ثم يدعون المرجان الذي ينمو في البحر، مثل النبات، يتعشعش بين الأوتار، ويسحبونها كل نصف سنة وهي مليئة بما لايحصى عدده من أفضل أنواع المرجان، وبذلك يحصلون على مرابح عظيمة، مقابل لاشيء

مطلقاً، فمن خلال هذا البحر الأحمر، تأتي تجارات ثمينة جداً، من الهند، وتنقل هذه التجارات من خلال فرع البحر، الذي ينطلق من البحر الأحمر، وينزل من خلال النيل إلى جميع أنحاء العالم.

وكما قلت من قبل، بالتجول حول شاطىءالبحر الأحمر، يصل الانسان إلى المكان الذي عبر منه بنو اسرائيل البحر، وكان ذلك لدى مطاردة المصريين لهم، وفي أثناء هذه الرحلة يجد الانسان أشياء نادرة من مختلف الأنواع على الشاطىء، وهكذا بعد ترك عدد من الجبال في الخلف، يصل الانسان الى بئرماره [الخروج: ١٥/ ٢٣] حيث كان الماء مالحاً، وكان ذلك عندما عبر بنو اسرائيل بذلك الطريق، وعندما ألقوا في ذلك الماء غصن شجرة، غدا بأمر من الله عذباً، وبعد مغادرة ماره، والمرور بمناطق مختلفة، وبعد رؤية كثير من الجبال وتوديعها، يصل الانسان إلى إيليم [الخروج: ١٥/ ٢٧]، فهناك عندما عبر بنو اسرائيل ذلك الطريق وجدوا هناك سبعين نخلة، واثني عشر بئراً، وهذا المكان خصب جداً، وفائق الجمال، ويجد الانسان هناك كثيراً من قلايات الآباء المقدسين وصوامع النساك التي كانت فيما مضى قائمة على مقربة من ذلك الموضع، وبعد مغادرة إيليم يصل الانسان إلى قفارسين، وإلى جبل سيناء، وقد بني عند سفح هذا الجبل دير واسع جداً وجميل، وكان ذلك في المكان الذي رأى موسى فيه الشجرة المحترقة (العليقة)، التي لم تستهلكها النار، وقد تكلم الرب إليه من خلال العليقة، والدير مسقوف بالرصاص، ومسيج بأبواب حديدية، ومحصن بشكل جيد من كل جانب، وفيه أكثر من أربعمائة راهب: إغريقي، وجورجي، وعربي، من كل من رجال الكهنوت والعلمانيين، وهم لايقيمون بشكل دائم في الدير، بل تراهم منتشرين في الخارج هنا وهناك، يعملون في مصالح الدير،وبالتعب الكبير، يحصلون على ما هو محتاج لأنفسهم وللحجاج، حيث يقومون بشكل مستقيم وتقوى بتوزيع الشيء نفسه على الحجاج،

وهم يعيشون بتقوى عظيمة، وبانتظام شديد، مع حياة متقشفة، ويقدمون الطاعة بتواضع إلى أسقفهم وكهنتهم، ويعيشون بقداسة وتواضع في كل شيء، وهم نادراً ما يشربون الخمرة، إلاّ في أيام أعياد خاصة، ولايأكلون اللحوم أبداً، بل يعيشون على «السلطة»، والخضروات، والحبوب، والتمور، وماشابه ذلك، مع الماء، والخل، والملح، ويأكلون من مائدة واحدة، من دون منضدة وأثاث، ويحتفلون بالقداسات الإلهية بكل تقوى، صباحاً ومساءً، وذلك تبعاً لطقوسهم، وهم يتبعون في كل شيء قانون القديس أنطوني، ويعمل الرهبان العلمانيون بنشاط عظيم، حيث يحرقون الحطب لتحضير الفحم على رؤوس الجبال، ويجلبون التمور بكميات كبيرة من إيليم، ويحملونها على ظهور الجمال وحيوانات التحميل إلى الفسطاط، حيث يتولون بيعها، ويحصلون من هناك على مساعدات كبيرة وهدايا حضرت من أجلهم، من قبل المسيحيين والتجار الذين يسكنون هناك، وبدون هذا لايستطيع كثير من الناس العيش في مكان صحراوي، ولايستطيعون الانفاق على الضيافة المكلفة التي يقدمونها بدون مقابل وبكرم عظيم وبلطف ويعطونها إلى الحجاج، وهم يجلبون التمور من إيليم والفحم من الجبال، أي من مسافة تزيد على سفر أكثر من اثني عشر يوماً، ويتولون بيع ذلك كما أخبرتكم.

ويقوم في هذا الدير كنيسة فائقة الجمال، يحافظون عليها ويبقونها نظيفة من الداخل، وهي تضاء بمصابيح وبوسائل إضاءة متنوعة، ويقدمون تبجيلاً خاصاً للمكان حيث يقوم المذبح العالي، وهم يخلعون أحذيتهم قبل دخولهم إلى هذا المكان، ويجعلون كل واحد من الحجاج الذين يرغبون بالدخول إليها يخلع حذاءه مثلما يفعلون، لأن المكان الذي يقوم فيه المذبح العالي الآن، قامت عليه فيما مضى العليقة، التي كلم الرب من خلالها موسى وقال له: «اخلع حذاءك من رجليك. لأن

الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة» [الخروج: ٣/ ٥].

وفي هذه الكنيسة، وعلى جهة اليمين للمذبح العالي، إنما في أعلى مكان، يقوم نوع من أنواع الصناديق من الرخام الأبيض، موضوع فيه، ومغلق على رأس وعظام العذراء المجيدة كاترين التي هي مختلطة فيما بينها بشكل فوضوي، وكانت هذه العظام قد نقلت من قمة جبل سيناء، ويجري عرض هذا الرأس والعظام بشكل مهيب جداً من قبل رئيس أساقفة الدير وكهنته، مع مباخر، وشموع، ومساعدي كهنة، وفي هذه الأوقات يطلب الأدلاء المسلمون، وسائقو الجمال، وساسة الخيول الذين يأتون مع الحجاج، ويلتمسون باخلاص أن يسمح لهم أيضاً برؤية هذه العظام المقدسة العجيبة، ويركعون بتقوى عظيمة جداً إلى جانب المسيحيين، ولدى عرض هذه العظام على الحجاج، إذا كان هناك أسقف أو كاهن كبير بين الحجاج، عندما يقوم رئيس الأساقفة أو رئيس الكهنة في الدير، بتناول واحداً من العظام المقدسة بيده، يحكها بشدة بوساطة أداة فضية شكلها مثل شكل عصا، حيث يتدفق بسبب ذلك زيت من المسام مثل العطر، وقد اتخذ في إحدى زوايا الصندوق التي حفظت فيه العظام فجوة فيها يتجمع جميع الزيت الذي يسيل من هذه العظام ويتدفق، ليجمع هناك، وهناك في هذه الفجوة ملعقة فضية، يأخذها بيده الكاهن الذي يتولى عرض العظام، ويملأ قارورة زجاجية صغيرة بالزيت، ويعطي كل واحد من الحجاج قارورة صغيرة فيها زيت.

فضلاً عن هذا، في هذا الدير، هناك آثار مقدسة أخرى كثيرة، ومع ذلك فإن رهبان الدير لايمكنهم الإقامة هناك، إلاّ بنعمة خاصة من الرب، وغيابهم هو لأسباب كثيرة غيرناشئة عن إثارة الشيطان، ولهذا السبب لاتوجد غيرة أو فوضى بينهم، بل تجدهم يؤثرون كل من يراهم، وعلاقاتهم جيدة معهم، وكذلك علاقاتهم مع المسلمين، فهي لاتختلف عن علاقاتهم مع المسيحيين، وبشكل خاص مع السلطان،

الذي يمنحهم كثيراً من الصدقات والمساعدات، وعلى هذا لم يتعرضوا أثناء عملهم أو تجوالهم في الصحراء للأذى من قبل أية مخاطر، أو حيوانات مفترسة، كما أنهم لاينزعجون ولايمرضون لا في الصيف ولا في الشتاء، من قبل المناخ غير المتوقع، أو بحرارة الشمس المرتفعة جداً، وأعتقد أنهم حصلوا أيضاً على نعمة خاصة من الرب، بوساطتها لم تدخل المخلوقات القذرة قط داخل جدران الدير، وأعني بهذه الحيوانات أمثال: الذباب، والزنابير، والدبابير، والقمل، وماشابه ذلك، فهذه لايمكنها العيش هناك.

وأخبرني راهب من ذلك الدير، كان ذا تعليم نادر، أنه حدث في يوم من الأيام، بإثارة من الشيطان، وباذن سماوي، أن هذه المخلوقات آذتهم كثيراً، وبقدر ما تستطيع، وعانوا كثيراً جداً من العذاب المضني والأذى الصادر عن هذه المخلوت غير النظيفة من هذه الانواع، إلى حد أنهم فكروا بترك المكان، إنما تشجعوا برأي مقدس لواحد من الرهبان، وصلوا إلى الرب أن يقوم برحمته بطرد وإزالة جميع أمثال هذه المخلوقات وابعادها عنهم، وتمت الاستجابة مباشرة لهذه الصلوات، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، لم يلاحظوا وجود مثل هذه المخلوقات أو أي منها مهما كان داخل أسوار الدير، هذا وفي الوقت نفسه تراهم خارج الأسوار يسببون أذى عظيماً لكل من البشر والحيوانات، فضلاً عن هذا لقد تبرهن مراراً، أن مثل هذه المخلوقات غير النظيفة عندما تحمل حية إلى داخل الأسوار تموت فوراً.

وحصل الرهبان على هذه الامتيازات جميعاً بوساطة حياتهم المقدسة والمستقيمة، لأنهم لايخدمون الحجاج من أجل المال أوطمعاً في شيء، بل إنهم يقدمون الخدمات لكل من يأتي إلى هناك، طوال المدة التي يقيمها مهما كانت، وسواء أكان الزوار أغنياء أم فقراء، عالين أو منخفضين، يعطيهم الرهبان جميعاً كل ما يتملكونه أنفسهم، بكل بساطة ولطف،

وذلك باسم الرب، وإذا ما حاول أحد الناس منحهم أو إعطاءهم، أو أي واحد منهم، أية هدية، يرفضون جميعاً، ويردونها، وإذا ما أخذها أي واحد منهم، سوف يتعرض إلى عقوبة شديدة، ومثل هذا أيضاً عندما يأخذ الحجاج بمغادرتهم، يقدمون لكل واحد منهم، بكل لطف ومن دون أي مقابل، أرغفة من الخبز، وبعض الحبوب، وما شابه ذلك، وفقاً لأفضل ما يقدرون، ويكون ذلك بقدر مايكفي أحدهم كل يوم من أيام سفره، وذلك حتى يصل إلى الأماكن المأهولة بالناس، ويقدمون هذا لكل الناس سواء إلى الغني وإلى الفقير، وإلى العالي والوضيع.

ويحتفل هؤلاء الرهبان بعيد البابا القديس غريغوري، ويولونه عناية فائقة خاصة، ويهتمون به أكثر من الأعياد الأخرى، لأنه في الوقت الذي كان فيه رأساً للكنيسة دعمهم بالهبات من خزانة الكنيسة، وشجعهم على السكنى هناك، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، بقيوا وعددهم أربعمائة، علماً أنهم كانوا قبل ذلك قليلاً عددهم.

ويطل فوق هذا الدير، ويشرف عليه جبل سيناء، الذي يصعد الانسان إلى قمته بوساطة عدد كبير من الدرجات، وبعد تعب شديد لايمكن للكلمات أن تعبر عنه، وتقوم فوق قمة هذا الجبل كنيسة، فوق البقعة، التي قال فيها الرب لإيليا النبي:« لماذا أنت هنا يا إيليا»؟ وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك، وعلى مقربة من هذه الكنيسة، هناك بيعة صغيرة، في المكان الذي أعطى الرب فيه الشريعة إلى موسى، وتجلى مجد الرب عليه، ومايزال يشاهد في هذا المكان فجوة في الصخرة الصماء، فيها محفور صورة موسى كختم، ففي هذه الفجوة مدّ الرب يده اليمنى فوق موسى عندما مرّ من أمام جلالته، وجعل موسى يرى أطرافه المعاقة، لأن موسى لم يكن بإمكانه تحمل رؤية وجهه السامي.

وحدث أنه إلى قمة جبل آخر أعلى من هذا الجبل، إلى جانب وادٍ عميق، في المكان نفسه، تمّ حمل جسد العذراء الرائعة كاترين من قبل

الملائكة من الاسكندرية، وبشكل إعجازي جرى اكتشافه من قبل النساك الذين سكنوا هناك، وهذا الجبل من أكثر الجبال اتعاباً في تسلقه، هذا ولايوجد على قمته بيعة، أو صومعة، أو مكان استقرار، وأعتقد أن سبب هذا أن تسلقه مرهق إلى حد أنه ما من أيدي بشرية يمكنها أن تبني أي شيء هناك، لكن من الممكن رؤية المكان الذي عثر فيه على جسد القديسة كاترين، حيث هناك علامات كتفي إنسان فوق الصخرة، وهذا المكان معلم بوساطة حجارة، وصنع الرب فوق هذا الجبل كثيراً من المعجزات، يحتاج الحديث عنها جميعاً إلى وقت طويل.

وعليك أن تعلم أن جبل سيناء متفوق في ارتفاعه على جميع الجبال في تلك المناطق، وكما قلت يتسلقه الانسان بعد جهد كبير جداً، أكثر من أن يستطيع أي لسان أن يصفه، ذلك أن على المتسلق له صعود عدد كبير من الدرجات الضيقة جداً والمحفورة في الصخر، وهذا الجبل يفقد اسم سيناء باتجاه مصر، ويصبح اسمه حوريب، ومن قمة هذا الجبل، من الممكن رؤية جميع المناطق من حوله، ويمكن بسهولة مشاهدتها، وفي هذا الارتفاع الشديد يتأثر الانسان كثيراً بالهواء، ومن هناك يمكن للانسان أن يتفحص بدقة البحر الأحمر، وإيليم، وهو المكان الذي أمطرت السماء فيه منّا على بني إسرائيل، كما يمكنه مشاهدة جميع المناطق الأخرى في الجوار، ويوجد عند سفح الجبل سهل جميل، فوقه اعتاد موسى على رعاية قطيع ختنه يثرو Jethro (شعيب) وهناك رأى العليقة، وحدث فوق هذا السهل أن قاتل أيضاً إسرائيل ضد عماليق(الخروج:١٧) في حين كان موسى يدعو بذراعين مرفوعين، ويشوع(هرون) وحور، قد وقفا ممسكين ليديه حتى تبقيا مرتفعتين، ومثل هذا حدث فوق هذا السهل أن صنع بنو إسرائيل لأنفسهم عجلاً مصهوراً، عنه حدثنا الكتاب المقدس،وفوق هذا السهل أيضاً أكلت النار ناداب، وأبيهو(لاويون:١٠/ ١)، وكذلك من الممكن رؤية أماكن

أخرى كثيرة، ورد ذكرها في الكتابات المقدسة.

٣٦ — *حول فيافي سيناء*

ويسافر الانسان من جبل سيناء نحو سورية، عبر الفيافي، خلال ثلاثة عشر يوماً، حيث يأخذ معه بعض الميرة الخاصة به، وذلك مع ما يعطى له من الدير، وهذه الفيافي سيئة جداً وخطيرة، وهي قائمة في العربية، وتدعى هذه البلاد سواء أكانت مسكونة أو مهجورة باسم العربية، وفي هذه الفيافي هناك ندرة عظيمة وشح بالمياه، ويقطن هناك أعداد لاتحصى من الناس هم مثل الحيوانات المتوحشة، وهم يعرفون باسم البدو، ويتجولون هناك على شكل جماعات مكونة من مئات أو آلاف مع بعضهم، وهم يسكنون في خيام مصنوعة من اللباد أو الجلود، وهم يتجولون هنا وهناك إلى الأمام وإلى الخلف حول القفار مع قطعانهم وحيوانات التحميل، حيث ترعى مواشيهم في أية أماكن يمكنهم أن يجدوا فيها ماء، مع أنها مياه قليلة في آبار وفي مجاري، وهم يعيشون على حليب نوقهم ومواشيهم، وهم لايأكلون الخبز، ما لم يصدف ويعطيهم بعض الحجاج بعضاً منه، أو ما لم يجلب إليهم من سفر أكثر من اثني عشر يوماً، ذلك أنهم لايبذرون ولايحصدون، بل يعيشون مثل الحيوانات غير الأليفة، وجوههم مرعبة أن تنظر إليها، حيث هي سوداء وملتحية، وهم شجعان جداً وسريعون، ويمكنهم أن يذهبوا على ظهور جمالهم(وحيدة السنام) إلى أي مكان بعيد يرغبون بالوصول إليه في يوم واحد، حيث ينشدون الأماكن التي من الممكن توفر المياه فيها، وهم يلفون قطعة طويلة جداً من القماش حول رؤوسهم، وذلك بسبب حرارة الشمس التي لاتحتمل، وهم يستخدمون القسي والنشاب، وفي هذه القفار من النادر وجود المياه خلال رحلة يومين أو ثلاثة كاملة، وقد يعثر عليها في مكان في اليوم الأول غير أنها ستجف في اليوم الثاني، فضلاً عن هذا، في هذه القفار، تجد لساعة من

الزمان أماكن كلها منبسطة، وفي ساعة ثانية، تجد أكواماً من الرمل مرعبة قد تجمعت، أولاً في مكان، ثم في مكان آخر، ولاتستمر بالاستقرار في مكان واحد، وبناء عليه فإن الطريق عبر القفار لايمكن مطلقاً معرفته، إلاّ بوساطة الجبال، ومن قبل البداة، الذين يعرفون ويفهمون الطرقات في القفار مثلما يعرف الناس الطريق حول بيوتهم.

ولايهتم هؤلاء مطلقاً بالسلطان، ولايقدمون إليه أية طاعة مهما كان نوعها، لكن السلطان يحاول إغراءهم واسكاتهم بالهدايا حتى وإن كانوا يسكنون بعيداً عنه، ذلك أنهم لو اختاروا لأمكنهم بسهولة عظيمة جداً أن يستولوا على مملكة السلطان ويخربونها.

وعبرت العذراء مريم هذه الفيافي مع الطفل يسوع عندما هربت من اليهودية من وجه هيرود، وينمو على طول الطريق المعتقد أنها مرت به ورود جافة، يطلق عليها في هذه المناطق اسم ورود أريحا، ويجمع البدو هذه الورود من القفار، ويبيعونها إلى الحجاج مقابل الخبز، فضلاً عن هذا، النساء المسلمات يكن مسرورات كثيراً، بأن تكون هذه الورود إلى جانبهن، وذلك عندما يكن في أوقات الولادة، فوقتها يشربن من الماء الذي جرى صبه فوق الورود، وقد أعلن أن ذلك مفيد جداً، وثمين أثناء الحمل.

وفي هذه القفار هناك مخاوف أخرى كثيرة، سوف تحتاج وقتاً طويلاً لحكايتها، وهي صادرة عن الرياح، والرمال، والرجال المتوحشين، والأفاعي، والأسود، والتنينات، والهوام السامة الأخرى والحيوانات المفترسة.

وبعدما يعبر الانسان هذه القفار، الممتدة نحو الجنوب، يصل إلى بداية أرض الميعاد وذلك إلى مدينة كانت فيما مضى جميلة لكنها الآن مهجورة، اسمها بير السبع، ويبدو أن هذه المدينة كانت فيما مضى مزينة

بكثير من الكنائس الجميلة، حيث ماتزال بقايا بعضها قائمة حتى هذا اليوم.

٣٧ — حبرون — وادي ممرا — وبيت لحم

وإذا ما انطلق الانسان من بير السبع في منتصف النهار، يصل إلى مدينة جميلة وقديمة، ماتزال مأهولة بشكل لابأس به، اسمها حبرون، وتقوم على جانب رابية قريبة من هذه المدينة، كنيسة جميلة، يوجد في داخلها الكهف المزدوج، حيث دفن فيه البطاركة الثلاثة:إبراهيم، واسحق ويعقوب، مع زوجاتهم، وهذه الكنيسة تعد مقدسة بشكل خاص لدى المسلمين، وهم لايسمحون لأي مسيحي بالدخول إليها، إنما يجعلونهم يصلون عند الباب، ويسمحون لليهود بالدخول حيث كانوا يدفعون في أيامي المال ليفعلوا ذلك، وعلى كل حال من الممكن رؤية هذه الكنيسة من قبل المسيحيين من كل من الداخل والخارج، وهي من داخلها مدهونة بالأبيض، ومزينة بشكل جيد بالحجارة، وينزل الانسان نحو الأسفل وكأنه في قبو، إلى الكهف، حيث قد جرى دفن البطاركة وزوجاتهم.

وعلى مقربة من حبرون يوجد الحقل، الذي صنع آدم من ترابه، وكلما ازداد حفر هذه الأرض ونقل التربة منها، كلما امتلأ مجدداً من قبل نفسه، وتحمل التربة إلى بلدان نائية، ويقول بعضهم إنها تباع، غير أنني لاأعرف شيئاً مؤكداً حول هذا الموضوع.

وعلى مقربة من حبرون أيضاً، يوجد وادي ممرا، حيث جلس إبراهيم عند باب خيمته ورأى ثلاثة، وعبد واحداً.

وكان في حبرون ثلاثة مرتدين من أسقفية Minden حسبما قيل، وكان اثنان منهم من السادة وكان الثالث خادمهما، ويحمل أولهما الماء على كتفيه ويبيعه في الشارع كما هي العادة في تلك المناطق، ويعمل الثاني

بيديه ليحصل على عيشه حسب أفضل مايستطيع، وأما الثالث، الذي كان خادمهما فصار جندياً، لأنه اعتقد أنه أفضل مظهراً للانسان من كل الجوانب أن يكون تابعاً لواحد من ضباط السلطان، وعندما سئلوا لماذا تخلوا عن إيمانهم، أجابوا بأنهم أملوا بأن يحصل سيدهم على الثروة والمكانة، لكنه خيب ظنهم، وأعلنوا، وهم يتنهدون حزناً، بأنهم يودون لو يخطفون من هذه البلاد إذا كان ذلك ممكناً، لأنهم كانوا يعيشون حياة بائسة جداً، ولم يمتلكوا الجرأة على الاخبار والكشف من هم كانوا من قبل، وكان هؤلاء الرجال الثلاثة أصدقاء مقربين كثيراً من فارس من هذه المناطق(بلاد المؤلف) اسمه وليم بولنزسيل Bolensele (كذا) كان مقيماً في بلاد ماوراء البحر قبل أيامي، وكان محترماً بشكل كبير هناك من قبل السلطان، وقد سمعت بأنه مات في كولون Coolgne (١).

وإذا ما سافر الانسان من حبرون، يمكنه أن يصل بسهولة خلال يوم واحد إلى بيت لحم، وقام فيما مضى على طريق سفر اليوم الواحد هذا دير الراعي القديس كريوث Karioth الذي عندما حلت ساعة وفاته، ورأى رهبانه أنه في آلام الموت قالوا:«بعد وفاة راعينا القديس كريوث، لن نعيش أبداً على هذه الأرض»، وفي تلك اللحظة بالذات دخلوا جميعاً في تباريح آلام ساعة الموت الأخيرة وماتوا، وبقيوا لوقت طويل دون أن تفسد أجسادهم وظلوا واقفين وكأنهم في ساعة آلام لفظ أنفاسهم، هذا ولم يستطع المسلمون تدميرهم، ولقد حاولوا ذلك مراراً، لكن الدير زال، ولم يبق أدنى أثر منهم.

وبيت لحم جميلة جداً، وهي قرية ممتعة، وهي ليست طويلة، قائمة

١ــ كان وليم فون بولدنسيل Boldinsel قد نزل في صور سنة ١٣٣٢، وكان في القدس في الخامس من أيار سنة ١٣٣٣، وقد كتب كتابه في ربيع سنة ١٣٣٦، وهناك رسالة كتبها في أفينون يوم عيد القديس ميكائيل سنة ١٣٣٧، وقد تحدث في هذه الرسالة عن نيته بالقدوم إلى كولون.

فـــوق شعب جبلي، ومسكونة مـن قبل المسيحيين فقط تقـــريبـــاً، وهي مسيجة:بمـراعي، ومزروعـات وأعشاب، وهي بالحري مسيجـة بشكل جيـد بوديان من حـولها، وهناك اعتـاد ملوك القـدس والصليبيـون على حشـد جيـوشهم مع بعضها، ولـدى سكانها كميات وافـرة من الخمـرة والأشياء الأخرى الجيدة،ويقـوم في بيت لحم كنيسة عظيمة وجميلة جداً، ومحصنة بشكل رائـع بكثير من الأبراج، وأعمال خـــارجيـــة، حتى كأنها قلعـة، وهي مسقوفـة بالرصاص، ومـزينة بأعمال الفسيفساء، وأحجـار اليشب، والرخـام، والذهب، وكما أعتقـد هي متفوقـة بزينتهـا على كل كنيســة مـوجـودة تحت الشمس، فهي قـد بنيـت من كل جـانب بشكل ثري، وجليـل، وملكي، وذلـك حسبما تستحق، وهي تمتلـك حـــوالي سبعين عمـوداً من الرخـام النفيس، وهي ليست مقنطرة، بل مسقـوفـة تحت الرصـاص، بأفضل أنواع الخشب، وجذوع وعـوارض من خشب الأرز، وجدران الكنيسـة مذهبة تحت الزجـاج، وقد عملت بشكل رائع بزجاج مرسوم.

وأراد المسلمون قبل أيامي أخذ بعض الأعمدة، لكنهم ارتعبوا كثيراً، برؤيا، جعلتهم يتـوقفون ولم يحاولوا قط منذ ذلك الحين أخـذهم، وأمام السدة في هذه الكنيسـة ينزل الانسان بضع درجـات إلى كهف حجري، ليس مبنيـاً بل هو طبيعي، حيث فيـه تحت المذبح العـالي، يوجـد المكان الذي صنع فيـه الـرب من أجلنا إنسـاناً، من أم عـــذراء، ويقـوم فـوق الموضع نفسه هناك مـذبح، وليس بعيداً عن المذبح يقـوم المعلف، الذي مددت فيه مريم العذراء المباركة الطفل يسوع، وهو ملفوف بأثمال بالية، وكان المشهد أن الرب نفسه وإنسـان، يبكيان بحكم الضعف الإنساني، مثلما اعتـاد الأطفال على البكاء، وإلى جـانب المعلف مـازال من الممكن رؤية قطع حديدية مثبتـة في الرخام بوساطة الرصاص، حيث كـان فيها حلقـات حديديـة، بها اعتاد رجـال الريف على ربط حيـوانات التحميل

العائدة إليهم مع المواشي، عندما يقدمون إلى السوق.

والمعلف مصنوع من الحجارة، وطوله حوالي أربعة أشبار، وفي ليلة الميلاد تجتمع هناك جميع الأمم الموجودة تحت قبة السماء، كما ينبغي بشكل صحيح جداً، ولكل أمة مكان محدد في هذه الكنيسة معزول لها ومخصص بشكل دائم، لتقيم فيه قداساتها، وفقاً لطقوسها الخاصة بها، ويمتلك اللاتين الآن الموضع الذي عمل فيه الرب إنساناً، ومثل هذا لكل أمة قائمة بذاتها، مكان قائم بذاته لها، وفي أيامي لم يكن النوبيون قد امتلكوا مكاناً خاصاً بهم، ويقوم قبل هذه الكنيسة الدير الذي سكن فيه القديس جيروم، والقديسة باولا، والقديس يوستوخيوم Eus-tochium، وكثير من القديسين الآخرين، وبفضل نعمة الرب صنعت هناك الكثير من المعجزات.

ويسكن الآن مسلم فوق ذلك الموضع، ويتلقى بنساً بندقياً واحداً من أي واحد يريد أن يدخل إلى الكنيسة.

ويوجد أيضاً في بيت لحم بيعة تحت الصخرة، من الواضح أنها تمتلك بابين، ولهذا يستطيع الانسان أن يعبر مباشرة إليها، لكن الآن جرى إغلاق أحد الأبواب وسدّ بالبناء، ففي هذا الموضع والحفرة، التي هي الآن بيعة،اختبأت العذراء المباركة لمدة ثلاثة أيام خوفاً من هيرود، وأبقت الطفل يسوع مخفياً هناك، وحدث أنها أثناء خوفها أن تقاطر بعض الحليب منها على الصخرة في ذلك المكان، وهذا الحليب مايزال موجوداً هناك حتى هذا اليوم، وقد ترشح الحليب من خارج الحجرمثل شيء رطب، فاللون حليبي مع شيء من اللون الأحمر، وكلما مسح المزيد من الحليب وأزيل، كلما عاد بالكمية نفسها، وليس أكثر، وهذا هو الحليب الذي من الممكن رؤيته، وهو معروض للمشاهدة في كثير من الكنائس المختلفة، لأنه يحمل إلى هنا وهناك من قبل الحجاج.

ويوجد أيضاً على مقربة من بيت لحم كهف كبير في الصخر، فيه جرى إلقاء عدد كبير من أجساد الأبرياء، وقد جرى حمل هذه الصخرة كلها تقريباً، ونقلها من قبل الحجاج، فضلاً عن هذا على بعد ميل واحد من بيت لحم، يوجد المكان الذي اعتاد القديس جيروم بشكل خاص على السكنى فيه، وهناك قام بترجمة عدد كبير من الكتب من العبرية، والكلدانية، والاغريقية إلى اللاتينية، وعلى مقربة من بيت لحم أيضاً، أي على بعد نصف ميل باتجاه سدوم وعموره، يوجد الموضع الذي بشر فيه الملائكة الرعيان بأن الرب قد ولد على شكل إنسان، وقد جرى في هذا المكان بناء كنيسة مزدوجة وفائقة الجمال، اسمها«المجد في الأعالي»، وهو ما أنشده الملائكة هناك، ولهذ السبب تبدأ أيضاً جميع ساعات قداساتها اليومية بـ«المجد في الأعالي»، تماماً مثلما نفعل بقولنا«المجد للرب في الأعالي»، وهم يفتتحون جميع القداسات، حتى القداسات من أجل أرواح الموتى بـ«المجد للرب في الأعالي»، وذلك بطريقة خاصة، حسبما رأيت مراراً في كتاب قداساتهم.

وهذه هي مدينة بيت لحم، المدينة الأسمى عند الرب، حيث ولد فيها داوود، وهي أيضاً كما قال عنها النبي ميخا:«وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا»[ميخا:٥/ ٢ — متى:٢/ ٦]، لأن بيت لحم قائمة في وسط يهوذا، ولهذا السبب أطلق على جميع تلك المنطقة اسم اليهودية، ذلك أن البلاد التي عرفت من قبل باسم اليهودية اسمها الآن سورية، واسم سكانها السريان.

ويذهب الانسان من بيت لحم إلى القدس بوساطة طريق، يوجد على يساره قبر راحيل زوجة يعقوب، وهو المكان الذي حملت فيه بابنها بنيامين، وقد توفيت أثناء الولادة، وعلى مقربة من هذا الطريق الكنيسة المشار إليها من قبل، أي كنيسة«المجد في الأعالي»، وكان أيضاً إلى جانب هذا الطريق، وما يزال موجوداً، عدد كبير جداً من من صوامع

القديسين، والكنائس والكهوف، والديرة، والقبور، العائدة للمسيحيين، وصنع الرب هنا كثيراً من المعجزات من خلال هؤلاء القديسين، وما يزال هناك حتى هذا اليوم عدداً كبيراً جداً من أجساد القديسين غير البالية، الرب وحده يعرف أسماءهم، وهم موجودون في أماكن متنوعة في الكهوف والأقبية.

وأيضاً على مقربة من هذا الطريق يوجد المكان الذي كان فيه البئر الذي ألقي فيه يوسف من قبل أخوته، ومن ثم بيع إلى الاسماعيليين، وبعد رؤية هذه المشاهد الكثيرة كلها مع المشاهد الأخرى، يصل الانسان إلى القدس، والمسافة فيما بين المكانين هي فقط ثلاثة أميال قصيرة من أميال تلك البلاد.

٣٨ — *مدينة القدس المقدسة*

القدس، المدينة المقدسة، التي فيها جرى صنع خلاصنا، وهي قائمة على جبل في وسط هواء صحي، وهي محصنة بشكل جيد، من جهة الشمال: بوساطة أسوار، وأبراج وتحصينات خارجية أخرى، ومن جهة الشرق بوساطة وادي شعفاط، ومن جهة الجنوب والغرب بوساطة وديان أخرى عميقة، وهي تفتقر إلى الماء في داخل أسوارها، وبركها مملوءة بالماء المجلوب من حبرون بوساطة مجاري تسير من تحت الأرض مع أقنية، من الممكن رؤيتها على طرف ذلك الطريق، عندما يسافر الانسان عليه، وهذه المدينة المجيدة ليست فائقة الطول ولا فائقة العرض، وهي ليست كبيرة جداً، كما أنها ليست صغيرة جداً، وهي مبنية بشكل مناسب إلى حد ما، وقد انتقلت بعض الشيء إلى شرق ما كانت قائمة عليه أيام صلب المسيح، وقد أعيدت عمارتها من قبل أليوس هدريانوس، وذلك بعدما هدمت من قبل تيتوس وفسبسيان وتمت إعادة العمارة لإظهار التشريف لموضع الجمجمة.

ويقـــوم في القـــدس هيكـل الرب، وهيكل سليمان، ويحتـل هذان الهيكـلان شطراً كبيراً مـن المدينة، ولايسمـح المسلمـــون للمسيحيين بالدخول إلى هذا الهيكل، وإذا مـا دخلوا عليهم إما مـواجهة الموت، أو التخلي عن عقيدتهم، وحـدث هذا في أيامي، لأن بعض الاغريق دخلوا إليه، وداسـوا على كتب المسلمين، وبما أنهم رفضوا التخلي عـن عقيدتهم شطروا إلى قسمين.

وهيكل الرب مستـدير، وقد بني وفق النمط الاغـريقي، فهو مـرتفع جداً، وواسع ومسقوف بالرصـاص، ومعمول من حجارة كبيرة منحوتة ومصقـولة، ووضع المسلمون فـوق ذروته — وفقـاً لطرائقهم — هلال قمـري، ولهذا الهيكل أربع ساحـات كبيرة، هي ليست مسقـوفة، لكنهـا مبلطةبشكل جيد، ومزينة برخام أبيض.

وعلى مقربة من هذا الهيكل، من جهـة اليمين، هناك كنيسة مستطيلة، ذات سقف رصـاصي، اسمهـا رواق سليمان، ويقدم المسلمـون احتراماً عظيماً لهيكل الرب، ويحفظـونه نظيفـاً جـداً في الـداخل والخارج، وهم جميعـاً عندما يدخلونه يخلعـون أحـذيتهم، ويسمونه الصخـرة المقدسـة، ولايسمـونـه الهيكل، ولهذا يقـول أحـدهـم للآخـر:«دعـونا نذهب إلى الصخـرة المقـدسة»، ولايقـولون:«دعـونا نذهب إلى الهيكل»، ويسمـون الهيكل:«الصخـرة المقـدســة» بسبب وجـود صخـرة صغيرة في وسط الهيكل، وهي مطوقة بحـاجز حديدي، ولقد سمعت أنه قـد قيل صدقاً من قبل مــرتـدين مسلمين أنه ليس من المفترض بـأن يلمس أي مسلم الصخـرة، وأن المسلمين يرتحلون من بلدان نـائيـة لزيارة الصخـرة بكل تقــوى، وفي الحقيقـــة تلطف الرب بإظهـــار الاحترام لهذه الصخـــرة بمختلف السبل، وصنع كثيراً من المعجزات هناك فوقها، وهذا ما يشهد عليه الكتاب المقدس بعهـديه القديم والجديد، وأول جميع الأمور، وقبل كل شيء، قـدم مليكصادق على هذه الصخـرة قـرباناً من الخبز والنبيـذ،

وكـان مليكصادق هـو أول الكهنة، وفوق هذه الصخـرة نام يعقـوب، ورأى مجد الرب، وسلماً واقفاً فوق هذه الصخرة، حيث وصل رأسه إلى السماء، وكان مـلائكة الرب يصعدون عليه وينزلون سـواء، وفوق هذه الصخـرة أيضاً رأى داوود الملاك واقفـاً، وسيف يقطر دمـاً بيده، وكـان مـرتاحاً مـن قتل الناس، ومن المعتقد أنه في داخـل هذه الصخرة اعتـاد الكهنة على رمي قرابين الحرق، التي غالباً ما أكلتها نار من السماء، ومن المعتقد أنه في داخل هذه الصخرة أخفـى النبي إرميا بشكل إعجازي في قلبهـا خيمة العهـد، عندما جـرى نقل الناس إلى بابل، وفعل ذلك وهو يقول:«بالنسبة لذلك المكان سيظل غير معروف حتى يحين الوقت الذي يجمع فيه الرب شعبه مع بعضهم بعضاً ثانية، ويتلقاهم في الرحمة»، ومن المعتقد أنها ماتزال موجودة هناك حتى هذا اليوم.

وعلى هذه الصخرة جرى تقديم المسيح عندما كان طفلاً، ووضع بين ذراعي سمعـان العدل، وجـرى تقديمـه من قبله، وفوق هذه الصخـرة تجادل المسيح مع اليهـود عندمـا كان صبيـاً في الثـانية عشرة من العمـر، وضيعه أبواه، ومن فوق هذه الصخرة غالباً ما تولى وعظ الناس.

وقد قرأنا بأن الهيكل قـد بني من قبل سليمان فوق أرض بيدر أرنان، وقد تعرض على كل حـال للتهديم على أيدي كثيرين، ومع هذا أعيدت عمارته دوماً فوق البقعة نفسهـا، بالشكل نفسه، وبالحجارة نفسها، زيادة على ما تقدم شرّف الرب هذا الهيكل كثيراً ومجّده، وأحبه كثيراً.

وفي هذا الهيكل رأى سليمان دخـاناً صاعداً نحـو الأعلى، ومجد الرب مقيماً دوماً فـوقه، وفي هذا الهيكل أورقت عصـا هرون، وفي هذا الهيكل جرى تقـديم مريم العـذراء المباركة، وقـدمت قربانها بعـد خطبتها، وفي هذا الهيكل جرى تقديم المسيح، وجلس فوق منارته العليا، وأغوي من قبل روح(الشيطان)، وإلى خارج هذا الهيكل أيضـاً قذف المسيح بالذين كانوا يبيعـون ويشترون، وغالبـاً ماتولى التعليم هناك والمناقشـة، وصنع

كثيراً من المعجزات، وذلك حسبما جاء في الانجيل، وكرس المسيح أيضاً هذا الهيكل بحضوره المجيد، وعانى فيه، وهو على شكلنا الضعيف كثيراً من الاهانات ومن سوء المعاملة على أيدي اليهود، ومن أعلى هذا الهيكل جرى رمي القديس جيمس الأصغر — أخي ربنا — نحو الأسفل حيث استشهد.

وعلى مقربة من هذا الهيكل، على جهة اليسار هناك، يوجد الباب الذهبي، الذي من خلاله دخل يسوع يوم أحد السعف، وهو راكب على ظهر أتان، وإلى هذا الباب يقوم المسيحيون كل يوم أحد سعف بمسيرة مهيبة قبل شروق الشمس، ويغني الأطفال عبر هذا الباب«المجد لابن داوود» الخ، ثم يدخل رئيس أساقفة الأرمن من الباب على ظهر أتان، ويرحب به من قبل الأطفال والناس، وكأن المسيح كان موجوداً هناك، ويرحب به من قبل اليهود.

وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من هذا الهيكل هناك كنيسة بنيت فوق البقعة التي ولدت فيها مريم العذراء المباركة، وفوق هذه البقعة نفسها ترقد القديسة حنة مدفونة هي وزوجها يواكيم في كهف تحت الأرض.

وأمام هذه الكنيسة تقوم بركة الضأن، التي لها خمس قناطر من حولها، وهناك اعتاد المرضى على نيل الشفاء عندما يجري تحريك الماء من قبل أحد الملائكة، وذلك حسبما تحدث الانجيل وأكد ذلك، وفي هذه الأيام هناك كهف، فيه تتجمع — عندما تمطر — كل مياه أمطار المدينة مع بعضها.

وخارج كنيسة القديسة مريم هذه، بنى المسلمون الآن مسجداً خاصاً بهم، ومع ذلك ما تزال قصة حنة ويواكيم وميلاد مريم المباركة، باقية حتى هذا اليوم مرسومة بجلال بشكل كامل على واجهة الكنيسة، وفي أيامي اعتادت امرأة مسلمة عجوز اسمها ياقوتة على شرحها بتقوى

وتديّن إلى المسيحيين، وكـانت تسكن في مقـابل الكنيسـة، وأعلنت أن صـورة يواكيم هي صـورة لمحمـد(ﷺ) وتمثل صـورة الأشجـار الجنة، حيث قبّل فيها محمـد(ﷺ) فتيات، وأشارت إلى الصـورة كلها أن المراد بها محمد(ﷺ)، ولهذا هي باقية إلى الأبد. وتراها تتحـدث بأخبار أخرى كثيرة، مع المزيد من قصص إعجازية حول محمـد(ﷺ) تحكيها والدموع في عينيها.

وليس بعيـــداً عن هيكل الرب، وعلى الجانـب الجنوبي، تحت المدينة، توجـد رابية صهيـون، التي هي أعلى بقليل من بقية الأرض التي تقـوم المدينة عليها، وعلى هذا الجبل قامت في القديم مدينة داوود، التي تشير إليها الكتابات المقدسة.

وعلى جبل صهيون هذا، أو في مدينة داوود، بُني في القديم دير فائق الجمال اسمـه دير القـديسـة مريم على جبل صهيـون، حيث عـاش فيـه رهبان نظاميون، وكان في داخل هذا الدير جميع الأمـاكن المقدسة التالية وأول كل شيء: في هذا المكان تعشى المسيح مع حواريه، واحتفل بأول فصح، وعمل عهـده، وكشف خـائنه، بينما تمدد حـواريوه فـوق صـدره وشربوا في أسرار السماء، وفي هذا المكان أيضـاً غسل المسيح بتـواضع أقدام حواريه، وجففهم بمنديل، ومـع أنه كان مولاهم ومعلمهم، فقد أعطاهم مثلاً بالتواضع، وأيضاً زار المسيـح مراراً هذا المكان عندما كان مـايزال في الجسد،وظهـر في هذا المكان بعـد مـوته وقيـامته، لحواريـه، وكـانوا جـالسين وراء أبواب مغلقـة، ثم شـوهد هناك ثانيـة، وهناك أدخل تومـا الشاك إصبعه في جنبـه، وهناك أيضاً كـانت مريم المبـاركة جالسـة مع الحواريين، والأبواب موصدة، خوفـاً من اليهود، وذلك في الوقت الذي تلقـوا فيـه المواسـاة من الروح القـدس، وهنا أيضاً غـالبـاً ماسكنت مـريم المباركة بعـد آلام الرب، وفي هذا المكان سلمت روحها إلى ابنها، واجتمع هنا الحواريون جميعـاً بشكل إعجازي، وفي هذا المكان

أيضاً جرى بشكل عجائبي اختيار القديس متى رسولاً، وهنا أيضاً غالباً ما أقام الحواريون المحبوبون قداسات مع مريم المباركة، وسكنوا هنا مع القديسة مريم والقديس لوقا، حتى وفاة مريم المباركة.

وفي هذا المكان أيضاً جرى دفن القديس ستيفن بين نيقوديموس وأبيبوس، وأيضاً جرى في هذا المكان دفن داوود وسليمان وملوك يهوذا الآخرين، ومن الممكن رؤية قبورهم حتى هذا اليوم، ويسكن في هذا الدير الآن رهبان منوارنة، وهو مزود في أيامي بشكل وافر بجميع الضروريات، من قبل ملكة سانيسا Sancea، زوجة الملك روبرت(١)، ويقومون هناك بإقامة القداسات بشكل علني وتقوي، باستثناء أنه غير مسموح لهم بالتبشير بشكل علني إلى المسلمين، ويتولون دفن موتاهم من دون معرفة حكام المدينة، وكان هؤلاء الرهبان في أيامي رجالاً مزدهرين كثيراً، وقد تولى التجار الأجانب، لابل حتى المسلمون، مدحهم كثيراً، لأنهم يقدمون خدمات جيدة إلى جميع الناس.

ويقوم هناك عند سفح هذا الجبل قلعة فائقة الحصانة، اسمها قلعة داوود، حيث من المعتقد أنها ماتزال باقية منذ أيام داوود، لأنه عندما جرى هدم هذه المدينة من قبل تيتوس وفسبسيان كان جبل صهيون وهذه القلعة قائمان خارج المدينة، وكانت هذه القلعة مملوكة فيما مضى من قبل بطريرك القدس، لكنها الآن مسكونة من قبل واحد من قادة السلطان، وهي محروسة بكل عناية من قبله ومن قبل مرتزقته.

وعند سفح هذا الجبل هناك أيضاً كنيسة، اسمها كنيسة القديس

---

١ — يقول بعضهم بأن هذا الملك، لابد أنه كان إما شارل روبرت صاحب أنجو، وملك هنغاريا، أو روبرت بروس ملك سكوتلندا، والأرجح — بعد قراءة رواية فابري، حول الدير الماروني فوق جبل صهيون — أن يكون لودولف أراد روبرت Rupert ملك أبوليا، وكلبيرا، وصقلية، والقدس.

المخلص، وفيها توجد الصخرة التي دحرجها الملاك، وأزاحها من على الضريح، وهي هناك معروضة للمشاهدة بشكل عام، وعلى مقربة من هذا الجبل أيضاً جرى إعدام القديس جيمس الكبير صبراً، وقد بني فوق تلك البقعة كنيسة، فيها الآن رئيس أساقفة الأرمن، ورهبان نظاميون تحت الطاعة للكنيسة الرومانية، ويوجد كذلك في القدس كنية أخرى اسمها كنيسة القديسة مريم للاتين. فضلاً عن هذا يوجد في القدس كثيراً من الكنائس تابعة للمنشقين والهراطقة، وأماكن أخرى كثيرة مقدسة، ومواضع ظهرت فيها نعمة الوحي.

وفوق جبل أكرا، وضريح المسيح، توجد كنيسة جميلة وعظيمة، قد بنيت هناك، وزينت بالرخام، وبأعمال الفسيفساء، والرسوم، وتزيينات أخرى، ولها أبراج أمام السدة، وفوقها وهي مفتوحة من الأعلى، فوق موضع ضريح المسيح، ويشبه داخل هذه الكنيسة كثيراً كاتدرائية مونستر Munster في وستفاليا Westphalia، وبشكل خاص بالسدة، وفي هذه الكنيسة، على مقربة من السدة، يقوم على الجانب الجنوبي جبل الجمجمة(أكرا) حيث جرى صلب يسوع المسيح، ويصعد الانسان في هذه الأيام إلى هذا الجبل بوساطة بعض السلالم في داخل الكنيسة، وكان من المعتاد فيما مضى على الصعود إلى هناك بوساطة سلالم كانت خارج الكنيسة، غير أن هذا الباب مغلق ومسدود من الخارج.

وهذا الجبل مشكل من صخرة قاسية جداً، وفي أسفل هذا الجبل توجد بيعة النوبيين، قد نجرت من الصخر الأصم، ويوجد على قمة جبل أكرا هناك أيضاً بيعة، يصعد الانسان إليها من داخل الكنيسة، وهناك في المكان الذي جرى صلب المسيح فيه، شق فيه وضع الصليب، ومن الممكن حتى في هذا اليوم رؤية التحول الذي ألم بالصخر الأصم أثناء آلام المسيح، بكل وضوح، وفي هذه البيعة نفسها جرى دفن

الأمراء الممجدين: غودفري، دوق أوف بوللیون، وبلدوين أخيه، الذي كان أول ملك صليبي للقدس، والذي نال الأرض المقدسة واستولى عليها بجهد كبير جداً، وبقوة استرد هذه الأرض واحتفظ بها، وألحق بالمسلمين أذى لايقدر بحجمه، ومنح المسيحية وأضفى عليها أعظم الأعطيات، وإنه لأمر مدهش حقاً أن تمكن المسلمون من الاستيلاء على قبور الصليبيين والأجساد التي وضعت فيها لترتاح دونما إزعاج، ومع أنهم رأوا كم قد ألحقوا بهم من أضرار، وكيف أنهم انتزعوا منهم حتى الأرض المقدسة كلها، تجد في لومبارديا عندما يتشاجر المسيحيون فيما بينهم، يلقي أحدهم أجساد خصومه المتعفنة إلى الكلاب.

وكان الأمراء الفرنجة الذين تقدم ذكرهم قد اتخذوا قراراً بوجوب عدم لبس تاج ذهبي، بل أن يلبسوا تاجاً من الشوك، وقد حافظ خلفاؤهم على هذا القرار حتى هذا اليوم، ويجري كل يوم على جبل الجمجمة — عندما يكون أي مسيحي ساكن هناك — قراءة قصة آلام المسيح، وذلك حسبما قرأت بكتاب قداساتهم، وعلى مقربة من جبل الجمجمة، حيث يوجد الآن خزانة، هناك الموضع الذي وقفت فيه أمه وحواريوه والنساء الأخريات، وهناك عهد يسوع بأمه لعناية حوارييه، وهو يقول:«انتبهي يا امرأة لابنك»، ويوجد أمام باب السدة، من جهة اليمين، صخرة سوداء، فهناك الموضع الذي مددوا عليه جسد يسوع عندما أنزلوه من على الصليب، ولفوه بأقمشة كتانية، وتقوم أمام السدة، من جهة الغرب، بيعة صغيرة مزدوجة، لها ثلاثة أبواب، وفي داخلها ثلاثة مذابح قائمة هناك، ويدخل الانسان من البيعة الأولى إلى البيعة الثانية، حيث يوجد ضريح المسيح، ويأتي دخوله من خلال باب منخفض وصغير ومقنطر على شكل نصف دائري، وقد عمل على هذا الشكل حتى يرغم الانسان على الدخول وهو منحني الظهر، وطول هذه البيعة مع الضريح حوالي تسعة أشبار، وعرض البيعة حوالي سبعة

أشبار، وارتفاعها حوالي اثني عشر شبراً، وضريح المسيح منجور من صخر أصم، وخشية من تدنيسه، أو سرقته من قبل الحجاج، هو مغطى بحجارة أخرى ورخام، وتحتوي الحجرة التي تغطيه من الواجهة على ثلاث فتحات، حيث جرى خرقها، ويستطيع الانسان من خلال هذه الفتحات أن يقبل الضريح الحقيقي والحجر الصحيح هناك، وصنعت الحجارة التي تغلف الضريح ولصقت ببراعة فوق الضريح، جعلتها تبدو لمن لايعرف وكأنها كلها حجرة واحدة، ولهذا السبب، كما أعتقد أنه لايوجد في أي كنيسة قطعة من الحجر الحقيقي لضريح المسيح، لأنه باستثناء الأماكن المفتوحة التي سمعتم للتو عنها، إنه قد حفظ، ومحفوظ بعناية عظيمة ومحروس، وفي الحقيقة لو كان من الممكن حمل ضريح المسيح على شكل حبات الرمل، لتم الفراغ من نقله منذ زمن طويل، حتى لو أنه كان كبيراً مثل جبل عظيم، ولما كانت قد بقيت هناك حبة رمل واحدة في تلك البقعة.

أما فيما يتعلق بالمصابيح والشمعدانات التي قيل هي موجودة حول الضريح المقدس، أعلن أنه لايوجد أبداً أي مصباح أو شمعدان مهما كان نوعه حول الضريح، لكن يسكن هناك في كنيسة الضريح المقدس بعض الشيوخ الجورجيين المتقدمين بالسن، لديهم مفتاح بيعة الضريح المقدس، وطعام، وصدقات، وشموع، وزيت للمصابيح حتى تشتعل وتضاء حول الضريح المقدس، وقد أعطي ذلك لهم من قبل الحجاج من خلال نافذة صغيرة في الباب الجنوبي للكنيسة، وإذا ما توقف هذا وانقطع، سوف يبقى بدون ضوء مهما كان نوعه، وبذلك يكون بدون تشريف أو احترام، لأن لدى المسلمين من الاحترام للضريح المقدس للمسيح، بقدر مالدى المسيحيين نحو كنيس يهودي.

ويوجد في هذه الكنيسة أيضاً، في مقابل السدة، مع مسافة ضئيلة نحو الجنوب، هناك الموضع الذي وقفت فيه المريمات الثلاث، وقالت

إحداهن للأخرى:«من سيدحرج هذه الصخرة لنا ويزيحها عن فم الضريح»؟.

وفي هذه الكنيسة نفسها أيضاً يقوم شطر من العمود الذي ربط المسيح إليه وجلد، والشطر الآخر موجود في القسطنطينية.

وينزل الانسان في هذه الكنيسة أربعين درجة إلى المكان الذي عثر فيه على الصلبان الثلاثة، ويوجد في هذا الجزء المنخفض، في داخل بيعة هناك، الكرسي الأسقفي لجيمس الأصغر، الذي اعتاد أن يجلس عليه عندما كان أسقفاً للقدس.

وفي هذه الكنيسة أيضاً توجد الأعمدة التي كانت موجودة في بيت بيلايطس، أيام آلام المسيح، وهذه الأعمدة لم تتوقف منذ ذلك الحين حتى الوقت الحالي عن رشح ماء عذب، فضلاً عن هذا يوجد في هذه الكنيسة الموضع الذي مدد فيه الرجل الميت فوق صليب المسيح، فنهض عائداً إلى الحياة.

وفي هذه الكنيسة يوجد أيضاً المكان الذي ظهر فيه يسوع إلى مريم المجدلية على شكل حدائقي، وجميع هذه الأماكن مسيجة في داخل هذه الكنيسة، وتبدو هذه الكنيسة كأنها قصر مستعد لتلبية احتياجات الحجاج، مع الذين يعيشون محبوسين في داخلها، لأن الحجاج الذين يزورونها يحبسون هناك في داخلها من الساعة الأولى لليوم الأول، حتى الساعة نفسها من اليوم التالي، ويمكنهم توقع وجود كل شيء فيه رضى لنفوسهم، فلمرتين في العام — أي أن تقول من الجمعة الحزينة حتى اليوم التالي للعيد — يترك المسيحيون، الذين يسكنون هناك، أنفسهم ويحبسونها في الكنيسة، بدون شيء، ويغلقون على أنفسهم، ووقتها يجد الانسان حوانيت في الكنيسة، حيث توجد مختلف الأشياء، وحيث تباع الأطعمة، مثلما تجري عمليات البيع في هذه البلاد في الأسواق

والمعـارض، ووقتهـا يستمع الانسـان إلى أحـاديث وأغـان بمختلف اللغات، وتقوم كل عـدة أمم باحتجاز مكان خاص بها لإقامـة قداساتها وفقـاً لطقوسهـا الخاصـة، ومن بين هذه الأمم يحتجـز اللاتين لأنفسهم المكان الذي ظهر فيه المسيح لمريم المجدلية على شكل حدائقي.

وعلى مقـربة من كنيسـة الضريح المقدس، سكن فيما مضـى فرسـان القـديس يـوحنا للقـدس، وقصرهم الآن مشفى عـام للحجـاج، وهذا المشفى كبير في حجمـه إلى حـد أنه يستطيع ألف إنسـان أن يعيشوا فيـه بكل سهولة، وأن يحصلوا على كل شيء يريدونه بالدفع مقـابله، وجرت العـادة في هذا القصر أو المشفى، أنه يجب على كل حـاج أن يدفع بنسين بندقيين، وذلك مقـابل استخدام المشفى، وهذا المبلغ لايتغير سـواء أأقام لمدة سنة، فهـو لن يدفع المزيد، أو أقـام لمجرد يوم واحـد فهـو لن يدفع أقل، وفي أيامي كان يسكن هناك في هذا القصر، أو المشفى عقيلة اسمها مـرغـريت الصقليـة، وكـان أخـوها هو الكاهن المسؤول عن الضريح المقدس واسمـه نيقولا، وكـانت مرغـريت هذه مفيـد ة جداً وخـدومة هناك، ولمعلومـاتي المؤكـدة أنها عانت من شقـاء عظيم ومتـاعب جمة في سبيل محبـة المسيحيين، ولاقت دوماً تقـديراً خاصـاً من السلطان وعناية بسبب فـائــدتها، وعليك أن تعـرف أن الكهنة المســؤولين عن الضريح المقدس يمتلكون امتيـازات عظيمة وحقوقـاً كبيرة، وذلك حسبما قرأت في كتاب قداساتهم، ويبدأون(القداسـات) لكل ساعة من ساعات النهار بعبارة«المجـد»، وذلك مثلما نفعل عندمـا نقول In adjutorium الخ،علماً بأنهم كـرجال، العـالم كله يشهـد لهم من أقصاه، وهم يقـرأون جميع القضـايـا الرئيسيـة الموجـودة في الانجيـل مع حـركـات جســدية وإيماءات، وعلى سبيل المثال يقـرأ الشماس في يوم عيد الفصح الانجيل كمايلي:«وجلبت في ذلك الوقـت مـريم المجـدليـة، ومــريم أم جيمس، وســالومي، بعض الحنوط، حتى يمكنهـن الوصـول إلى هنـاك ومن ثم

دهن يسوع»، وعندما يصلون إلى كلمات:«هو ليس هنا، هو قد قام»، وقتها يشير الشماس بإصبعه إلى ضريح المسيح، ويفعل الشيء نفسه في القضايا الأخرى، وفي مقابل الكنيسة، على الجانب الغربي، هناك الصخرة، التي استراح عليها يسوع لبعض الوقت، عندما كان حاملاً لصليبه، وذلك عندما خانته قواه بسبب عذابه ووزن الصليب وثقله، وهناك أرغم اليهود سمعان القرني، الذي كان قادماً من قريته، أجبروه على حمل الصليب، وقرب الكنيسة، وعلى مسافة ضئيلة نحو الجنوب، توجد الصخرة التي وقف يسوع عليها عندما قال:«يا بنات القدس لاتبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن»الخ»، ومن الممكن رؤية بلاط منزل بيلايطس في القدس حتى هذا اليوم، لكن هذا المنزل كان آنذاك خارج المدينة، ومثله بيت كيفاس، حيث اجتمعوا فيه يتشاورون، وقد تنبأ قائلاً:«إنه لمن الموائم أن يموت رجل واحد من أجل الشعب»، وهذا البيت يبعد عن القدس مسافة ثلاثة أميال من أميال تلك البلاد، فضلاً عن هذا، يمكن للانسان أن يشاهد كثيراً من الأماكن العجيبة والمقدسة، يحتاج الحديث عن كل واحد منها إليكم إلى وقت طويل.

ولدى المضي من القدس، يصل الانسان إلى مدينة كانت فيما مضى جميلة، لكنها الآن مهجورة، وهي قائمة في المنطقة التلية لليهودية، واسمها زكريا، وهي تبعد مسافة خمسة أميال عن القدس،وفي هذه المدينة عاش زكريا وإيزابل، والدا يوحنا المعمدان، وإليها جاءت مريم المباركة من الناصرة، وكان ذلك بعدما تلقت كلمة البشارة من جبرائيل، وعندما قابلتها إيزابل قفز الولد في رحمها، وقالت مريم المباركة«إن روحي تمجد الرب» الخ.

وقد بني فوق المكان الذي التقيتا فيه وعانقت إحداهن الأخرى، كنيسة فائقة الجمال اسمها«الممجدة» حتى هذا اليوم، ويبعد هذا المكان عن الناصرة سفر ثلاثة أيام ونصف اليوم، بالسفر المستعجل، وهو ما

قـامت به وقتهـا أم ربنـا، وذلك حسب رواية الانجيل(لوقـا:١/ ٣٩) حيث جـاء قـوله:«فقـامت مريـم وذهبت بسرعة إلى الجبـال في منطقـة اليهودية»، وفي هذه المدينة جرى أيضـاً الحمل بالقديس يوحنا المعمدان، كما تمت ولادته، وفي أثناء عـودة الانسـان من مـدينة زكـريا هذه يرى المكان المعتقد أن شجرة صليب المسيح قد نمت فيه، فضلاً عن هذا يرى الانسـان على جـانب الطريق كثيراً مـن قبـور القـديسين، والنسـاك، والكهـوف، والأقبية، حيث يتم العثـور هناك حتى هذا اليوم على عـدد كبير من أجساد القـديسين كاملة غير فاسدة، الذين يعـرف الرب وحده أسماءهم.

وفي عودة الانسان إلى القدس عبر هذا الطريـق، هناك موجود خارج البـاب الشمالي المكـان الذي جـرى فيـه رجم أول الشهـداء، القـديس ستيفن، ويبدو أنه كان هنا كنيسة جميلة غير أنها الآن مهدمة، وهي قائمة فـوق وادي شعفـاط، وفي وادي شعفـاط هناك كنيسة مقـدسـة، لكنهـا ليست جميلة جـداً، قـد بنيت على شرف مـريم المبـاركـة، فمنهـا ينزل الانسـان ستين درجة فيصل إلى ضريح مـريم المبـاركة، الذي هو مـزين بمصـابيح وشمعـدانات أجمل وأكثر عـدداً مما هو مـوجـود عند ضريح المسيح.

والمكان الذي يقـوم فيه الضريح ليس أوسع مما يستطيع ثمانيـة رجال أن يقفوا فيه بشكل موائم، وشكل ضريـح المسيح وضريح مريم المباركة هو هذا نفسـه، والمكان الذي تقوم فيـه هذه الكنيسـة قد كـان في أيام آلام المسيح بيت عناس، الكاهن الرئيسي، وهناك حدث أن أنكر بطرس المسيح، ويقـوم فـوق البقعـة التي أنكره عليهـا عمـود رخـامي، ليكون بمثابة ذكرى أبدية، ومن المعتقد أن المسيح سوف يأتي إلى هذا الوادي في يوم القيامة، فيكون حكماً عادلاً، يجازي كل إنسان تبعاً لأعماله.

ويجري خـلال هذا الوادي نفسـه، وادي قـدرون، الذي تتجمع فيـه

جميع المياه التي ترشح من المدينة ومياه الأمطار التي تأتي من الهضاب على كلا الجانبين هناك، وعلى مقربة من هذا الوادي، عند سفح جبل الزيتون، توجد الحديقة التي ألقي فيها القبض على يسوع، وذلك حيث تمت خيانته من قبل يهوذا بقبلة، وغالباً مازار الرب عندما كان بالجسد هذه الحديقة مع حواريه، وتقوم كنيسة جميلة في المكان الذي ألقي القبض فيه على المسيح، لكن المسلمين يربطون الآن فيها قطعانهم وحيواناتهم ويطعمونها.

وعلى مسافة صغيرة من الحديقة، نحو اليسار، وتحت صخرة هناك، يوجد المكان الذي صلى فيه المسيح إلى الآب قائلاً:«أيها الآب، إذا كان من الممكن، دع هذا الكاس يتجاوزني»، وفي أثناء خوفه وضعفه الانساني تعرق دماً.

وعند سفح الجبل المقابل، حيث بنيت القدس، توجد بركة سلوان للاستحمام، والذي هو موجود الآن فيها مجرد مجموعة من المياه الآسنة، وعبر بركة الاستحمام وفي قبالتها يقوم تمثال أبسالوم، وهو مصنوع ببراعة، وله حجم رائع.

وفوق وادي شعفاط، نحو الجنوب، يوجد حقل الفاخوري، أو حق الدم، ويسمى أيضاً حقل الدم، ذلك أنه شري بثمن الدم، من أجل دفن الغرباء فيه، غير أن واحداً من التواريخ الشرقية قد أوضح أن الذي شري منه هو ماتساوي قيمته خمسة عشر بنساً فقط، وهذا بالفعل أمر يمكن تصديقه، لأنه لايستوعب ثلث الحقل.

٣٩ — *حول الثلاثين قطعة من الفضة*

نحن نقرأ في تاريخ ملوك الشرق الذين قدموا أعطيات إلى ربنا، أن تيراح والد ابراهيم كسب مالاً، أو بنسات، وذلك بناء على طلب ملك لبلاد الرافدين اسمه نينوس، وأنه قد تسلم ثلاثين قطعة من الفضة

ايجاراً له، وقد أعطى قطع الفضة هذه إلى ابراهيم، الذي أنفقهم خلال أسفاره في المنفى، وجرى تداول هذه القطع الفضية بين مختلف الأيدي، حتى وصلن إلى أيدي الاسماعيليين، وبهن جرى شراء يوسف من أخوته، وفيما بعد عندما صار يوسف حاكماً في مصر، رجعت قطع الفضة هذه إلى أيدي يوسف، وحصلن له من أخوته كثمن للقمح، ولدى اعادتهن إلى أخوته، أعطاهن أخوة يوسف إلى حاجبه، الذي بعث بهن إلى سبأ لشراء بضائع من أجل فرعون، وفي أيام سليمان، عندما جاءت ملكة سبأ من الشرق للاستماع إلى حكمته، قدمت هذه الثلاثين قطعة فضية إلى الهيكل، وفي أيام رحبعام، عندما قام نبوخذ نصر بنهب الهيكل والاستيلاء على كنوزه، أعطى الثلاثين قطعة من الفضة والكنوز الأخرى إلى ملك جودوليا Godolia الذي كان معه في جيشه، وهكذا بقيت هذه القطع مع بقية الكنوز في خزانة ملوك جودوليا حتى وقت ميلاد المسيح.

وانتقلت في ذلك الوقت مملكة جودوليا إلى النوبة، وحدث عندما ولد ربنا، أن رأى ملكيور، ملك النوبة في النجوم أن المسيح قد ولد من عذراء، وبناء عليه أخذ الثلاثين قطعة، لأنه لم يجد ماهو أفضل أو أقدم بين ذهب خزانته، وبإرادة من الرب منحهم إلى المسيح، وفيما بعد عندما هربت مريم العذراء المباركة إلى مصر لخوفها من هيرود، فقدت الثلاثين قطعة مع بقية هدايا الحكماء، في مكان هو حيث قامت حديقة البلسم الآن، وقد عثر راعي عليهم واحتفظ بهم لمدة ثلاثين عاماً، ثم كان أن انتشر صيت المسيح في الخارج، وقدم هذا الراعي نفسه إلى القدس، حيث تولى المسيح شفاء مرضه، وعندما كان المسيح يعظ في الهيكل ويعلم، منحه هذا الراعي الثلاثين قطعة مع بقايا هدايا الحكماء، لكن المسيح رفض أخذهم، وطلب منه منح القطع الفضية للهيكل، ووضع الهدايا الأخرى فوق المذبح، ونفذ الراعي هذا، وألقى اليهود الثلاثين

قطعة في قربان، وأعطوهن فيما بعد إلى يهوذا من أجل خيانة يسوع، ثم لما أعادهن يهوذا ثانية، اشتروا حقل الفاخوري بخمس عشرة قطعة، وأعطوا الخمس عشرة قطعة المتبقية إلى العساكر الذين تولوا حراسة ضريح المسيح، وبعدما صنع بهذه القطع مارسم لهن بالقدر وتقرر، جرى إثر ذلك اقتسامهن ومن ثم تفرقهن هنا وهناك، لكن حتى صنع ذلك الذي تقرر وجوب صنعة بهن، جرى الاحتفاظ بهن معاً كما سمعت، وتطلق الكتابات المقدسة عليهن اسم بنسات فضية،لأنه في القديم أطلقوا على جميع المعادن اسم الفضة، إنما مما لاشك فيه كن من الذهب.

وحقل الدم ليس حقلاً واسعاً حسبما أخبرتك، لكنه يحتوي على حفرة عميقة جداً قد حفرت فيه، ولهذه الحفرة سقف مقنطر فوقها، وهذا السقف مخروق بوساطة فتحات، ومن خلال هذه الفتحات يجري إلقاء أجساد الموتى إلى داخلها، وبعد ثلاثة أيام لايبقى شيئاً سليماً من هذه الأجساد غير العظام، ذلك أن مكاناً ضيقاً بهذا القدر، لايمكنه أن يستوعب مثل هذا العدد الكبير جداً من الأجساد.

وعلى مقربة من هذا الحقل هناك مكان فائق الجمال، وفيه أشجار جميلة جداً، كان الرهبان الدومينيكان يحاولون شراءه، عندما كنت على وشك المغادرة، ولاأعرف إن كانوا قد حصلوا عليه أم لا، وعلى مقربة منه هناك كثيراً من قلايات القديسين وصوامع النساك التي كانت تفيض بالنعمة، لكنها الآن مهجورة، ومثل ذلك على مقربة من هذا الكهف يوجد الكهف الذي أخفى بطرس نفسه فيه بعدما أنكر المسيح، ومن ثم بكى بحرقة، وليس بعيداً عن هذا الكهف يوجد المكان الذي شنق يهوذا فيه نفسه وهو في حالة يأس.

٤٠ — جبل الزيتون

وعلى مقربة من القدس، باتجاه الشرق، يقوم جبل الزيتون، الذي يعرف الآن باسم جبل الضياء، وهو مكان جميل جداً، مع وجود وادي شعفاط فقط بينه وبين القدس، وجبل الزيتون أعلى بكثير من المدينة، إلى حد أن كل شيء في المدينة يمكن رؤيته من قمته، وأطلق عليه اسم جبل الزيتون لأن كثيراً من أشجار الزيتون قد نمت هناك، وكما قلنا يعرف أيضاً باسم جبل الضياء، لأنه في أثناء الليل تشع أضواء الهيكل من فوق في مقابله، والبابان الشرقيان للقدس اللذان يقودان إلى الجبل مغلقان بشكل دائم، لأن وادي شعفاط بين المدينة والجبل منحدر إلى درجة يصعب فيها على الانسان التسلق والصعود إلى الأعلى، والنزول نحو الأسفل على يديه، وعلى قدميه، والذي هناك الآن باب واحد فقط اسمه الباب الذهبي، وتقوم على جبل الزيتون كنيسة جميلة اسمها كنيسة القديس المخلص، وذلك فوق المكان، الذي صعد منه المسيح بتواضع إلى أبيه بعد مضي أربعين يوماً على آلامه، وحيث قالت الملائكة إنه سوف تتوجب عودته ثانية كحكم عادل، ومن الممكن رؤية علامات قدم المسيح على بلاط تلك الكنيسة حتى هذا اليوم، ولقد قرأنا بأن المسيحيين عندما كانوا قد شرعوا ببناء تلك الكنيسة وبتبليطها، كانوا كلما جاءوا إلى المكان الذي كانت فيه طبعات قدم المسيح ووضعوا حجارة فوقها، كانت الحجارة تنبعث عالية مجدداً، وكأن إنساناً يريد أن يخطو، وهكذا بقيت طبعات القدم حتى اليوم الحالي، والكنيسة مفتوحة، لأنه من غير الممكن صنع سقف مقنطر بأي وسيلة من الوسائل فوق المكان الذي عبر المسيح من خلاله إلى عليين، ويوجد على جبل الزيتون أيضاً، وتقوم كنيسة صغيرة أخرى فوق المكان الذي تلا فيه المسيح صلاة الرب، وعلمها لحوارييه، وماتزال الكنيسة تدعى باسم«الصلاة الربانية»، وقد قام فيما مضى أيضاً فوق هذا الجبل بيعة أخرى، وهي

الآن مهدمة، وقد قامت فوق المكان الذي رأى المسيح منه المدينة وبكى عليها، وتوجد على هذا الجبل نفسه قرية صغيرة اسمها الجليلية، وهي غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وذلك حيث سكن الحواريون مع بعضهم، وهذه الجليلية هي التي نقرأ حولها:«اذهب إلى الجليلية، وهناك سوف تراه، كما قال لك»، كما نقرأ: «إنني سوف أذهب قبلك إلى الجليلية»، هذا وهناك جليل أخرى التي هي بلاد كبيرة، وتبعد سفر ثلاثة أيام، وذلك حسبما سأحدثكم فيما بعد، وفوق هذا الجبل، هناك أيضاً أماكن سكنى قديسين، وسواح وصوامع نساك بهية.

وعلى مقربة من جبل الزيتون تقوم بيت فاجي، حيث ركب المسيح في يوم أحدالسعف الأتان للذهاب إلى القدس، ولابد أنه كان راكباً جيداً، وإلاّ لايستطيع إنسان أن يخبر مطلقاً أن إنساناً يمكنه وهو راكب على ظهر أتان، أن ينزل على مثل ذلك الطريق، لأن هذا الطريق منحدر جداً، وضيق من جبل الزيتون، وعلى بعد نصف ميل قصير من بيت عنيا تقوم قرية بيت فاجي، التي كانت فيما مضى قلعة جميلة جداً، قائمة على طرف الرابية، وفيها ثلاث كنائس، تقوم أولاهن فوق المكان الذي أقيم اللعازر فيه من الموت، وضريحه مايزال يشاهد هناك، هذا وإن قبور: المسيح، ومريم المبارك واللعازر هي ذات شكل متشابه، وتقوم الكنيسة الثانية في المكان الذي كان فيما مضى بيت سمعان المجذوم، وذلك حيث دعي المسيح إلى غداء، وجاءت مريم المجدلية المباركة، ودهنت شعر المسيح يسوع مع قدميه، ثم غسلتهم بدموعها، وجففتهم بشعرها، فهذا ما تتحدث الكتابات المقدسة عنه وتوثقه، واتخذت الكنيسة الثالثة من قصر مرثا، حيث جرى بالغالب استقبال ربنا وهو في هيئة ضعفنا البشري، وهو جائع، وعطشان، وعريان، ومنهك، فقد استقبل بمثابة ضيف، وجرى تقديم ما احتاج إليه وتمت مواساته عندما كان بلا بيت.

ويربط المسلمون الذين يسكنون الآن هناك ثيرانهم وحيوانات التحميل لديهم، في هذه الكنائس،وفي هذا المكان نصب سليمان صنم مردوخ العائد إليه.

٤١ — أريحا — الصحراء — سدوم وعمورة

ويصل الانسان من بيت عنيا إلى الأردن في يوم واحد، وذلك بعد عبوره لبرية صغيرة اسمها مونتوست Montost ، وقام في هذه البرية القديس يوحنا المعمدان بالتعليم، وأكل الجراد والعسل البري في المكان نفسه، وحدث في هذه البرية أيضاً أن سقط إنسان بأيدي اللصوص، وكان ذلك أثناء نزوله من القدس إلى أريحا، وذلك حسبما حدثتنا الكتابات المقدسة، ويوجد في نهاية هذه البرية الجبل الذي اسمه جبل القرنطل، فهناك فوقه صام يسوع لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، فكان جائعاً، وهناك أغواه الشيطان ليعمل خبزاً من الحجارة، وفي منتصف الطريق في أعلى الجبل هناك صومعة جميلة قد نحتت في الصخر،فيها صام المسيح، وفيها يعيش الآن رهبان جورجيون، وتسبب في أيامي ملك جزره Gazara بتدمير الطريق، حتى لايتمكن الرهبان من النزول، والحجاج من الصعود إلى هناك، لكن عندما سمع بالسلطان بهذا، تدبر إعادة ترميم الطريق، وسمح للرهبان بالإقامة هناك بشكل أبدي.

وعلى قمة هذا الجبل تقوم كنيسة جميلة، في المكان الذي أغوي فيه المسيح من قبل الشيطان، وعن هذه البرية ذاتها نقرأ:«ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليغوى من إبليس»[متى:٤/ ١].

وعلى مقربة من هذا الجبل،وباتجاه سهل الأردن، هناك نبع، وحديقة فائقة الجمال،فهناك سكن إبراهيم عندما جاء من بلاد الكلدان، وبنى مذبحاً هناك، ودعا باسم الرب،واسم هذا المكان بستان إبراهيم» حتى

هذا اليوم.

وبعدما يعبر الانسان هذه الأماكن يصل إلى أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة ملكية ومشهورة، وقد تراجعت الآن إلى قرية صغيرة، غير أنها قائمة في بقعة فائقة الجمال وخصبة جداً، في وادي الأردن، وهذه هي أريحا التي هدم الرب أسوارها بمعجزة، وأعطاها إلى يوشع، مع إلقاء اللعنة على من سوف يحاول عمارتها.

وإلى أريحا هذه انتمت راحاب العاهرة، وزكّا الذي كانت قامته قصيرة، وكان من أريحا هذه الطفل الذي سخر من النبي إيليا بقوله له:«إذهب يا أقرع الرأس، امض أنت يا أقرع الرأس»، وقد التهم من قبل دبين انتقاماً له، وهذه أمور تتحدث عنها الكتابات المقدسة وتشهد على صحتها.

وعلى مقربة من أريحا يوجد المكان الذي أعاد يسوع فيه النور إلى عيني الأعمى، وهو عابر من هناك، وعلى مقربة من أريحا أيضاً هناك يجري الجدول الذي جعل النبي إيليا مياهه عذبة، حيث كانت من قبل مرة، وعلى مسافة ثلاثة أميال قصيرة من أريحا يوجد البحر الميت، الذي طوله في هذه اللاد حوالي الثمانيين ميلاً، وهناك قامت فيما مضى مدن:سدوم، وعامورة، ودومه، وساعور العظيمة، وقد قام الرب بالخسف بهم وبجميع الأماكن التي كانت بهم، وبما كان بقربهم مع جميع المدن هناك والقرى والقلاع والحصون، وكان ذلك بسبب آثامهم المجوجة.

وما من إنسان يمكنه استخدام مياه هذا البحر من أجل أي غرض مهما كان نوعه، لأن لها رائحة قذرة لايمكن تحملها أبداً وشريرة، ولهذا عندماتهب الريح تسمم هذه المياه جميع المنطقة من حولها هناك، وفي أوقات العواصف يقذف هذا البحر كثيراً من الحصى الجميل، لكن إذا

ما التقطهم أي إنسان، سوف تبقى رائحة يده قذرة جداً لمدة ثلاثة أيام، إلى حد أنه لن يتمكن من تحمل نفسه، ويقول بعضهم أن ما من إنسان يمكنه أن يغطس هناك فيه ويغرق، وعن هذا أنا لاأعرف شيئاً غير الذي قيل لي، وللصدفة ما من أحد حاول ذلك، غير أنني سمعت من بعض الناس من هذه البلدان، أنه في بعض الأماكن من هذا البحر من الممكن رؤية قعره، وفي بعضها لايمكن، أما بالنسبة للأبنية التي كانت قائمة هناك قبل الدمار العظيم، ما من أثر منهم يمكن رؤيته، وفي الحقيقة نادراً ما يقترب إنسان منه بسبب رائحته النتنة التي لايمكن تحملها، ومع ذلك فإن جميع المنطقة من حوله مليئة بالأشجار وبثمار عظيمة، وفائقة الجمال أن تنظر إليها، لكن عندما يجري قطف هذه الثمار وفتحها أو تكسيرها، يجدها الانسان مليئة بالغبار والرماد في داخلها، إلى حد أن يد الانسان الذي يقطفها لايمكنها التخلص من رائحة النتن المقيتة لمدة ثلاثة أيام، لأنه حتى المنطقة حول هذا البحر مليئة بلعنة الرب.

وفي هذه المنطقة الأفعى التي اسمها تيروس Tyrus موجودة ويمكن إمساكها ، ومنها الذي يدعى باسم ترياق قد نال اسمه، لأنه يصنع منها بشكل رئيسي، وهذه الأفعى ليست أطول من نصف شبر، وغلظها مثل إصبع إنسان، ولونا أصفر مزيج بلون أحمر، وهي عمياء وليس هناك دواء معروف لسمها، إلاّ بقطع الطرف المعضوض، وعندما تكون غاضبة تضع فمها مثل لهيب نار، ويخيل للانسان وقتها أنه نار حقيقية، سوى أنها نار لاتحرق المخلوق، ووقتها يقف شعرها فوق وجهها وكأنها خنزير وحشي غاضب، وفي تلك الأوقات يصبح رأسها أضخم، ولولا أنها عمياء أعتقد أن ما من إنسان يمكنه أن ينجو منها، ولقد سمعت من الذين صنعتهم إمساك هذه الأفاعي، أنها إذا عضت حصان إنسان، سيقتلون الممتطي له.

وعلى مقربة من البحر الميت، وعلى جهة اليمين باتجاه سبط إسرائيل، وفوق رابية صغيرة، تقف زوجة لوط، وقد تحولت إلى عمود من ملح، وكان في هذه الأماكن في أيامي بعض فرسان الداوية، الذين أخذوا أسرى لدى سقوط عكا، يقومون هناك بقطع الأخشاب هنا وهناك في الجبال في خدمة السلطان، وهم لايعرفون بأن طائفة الداوية قد جرى قمعها وإزالتها، لأنهم يعملون هنا وهناك في الجبال، ولم يروا إنساناً من هذا الجانب من البحر منذ أن أخذوا أسرى، وجعلنا هؤلاء الرجال نقلع بقوة عن متابعة الترحال على طول ساحل البحر الميت، وذلك إذا كنا نرغب في أن لانفقد حياتنا من خلال نتنه، هذا وقد مكنونا من رؤية تمثال زوجة لوط، الذي كنا قادرين على رؤيته بوضوح عن بعد من هناك.

وفي تلك السنة أطلق السلطان سراحهم مع زوجاتهم وأولادهم، استجابة لتدخل أحد الوسطاء، وقد قدموا إلى بلاط مولانا(البابا)، ومن هناك جرى إرسالهم مشرفين إلى أوطانهم، وقد كان واحداً منهم برغندياً، وكان آخر من طولوز.

وليس بعيداً عن تمثال زوجة لوط تقوم مدينة ساعور، التي بفضل دعاء لوط أنقذت من الدمار.

وفيما وراء البحر الميت، باتجاه الشرق، توجد أحصن قلعة في العالم، وهي التي اسمها باللغة العربية«عربة»، وفي الكلدانية«شوبك»، وفي اللاتينية«مونتريال»، ولقد قيل إنه لايوجد قلعة في العالم يمكن مقارنتها بها، ذلك أنها محاطة بثلاثة أسوار، ففي داخل السور الأول هناك صخرة مرتفعة جداً، فيها ثلاثة ينابيع تتدفق المياه منها، ومياه هذه الينابيع تسقي جميع المنطقة في تلك الأحواز، وفي داخل السور الثاني ينمو ما يكفي من القمح بسهولة للناس الذين يعيشون في القلعة من سنة إلى سنة أخرى، وكان من المعتاد أن ينمو في داخل السور الثالث كثير من الكروم، لكن

هذه الدوالي اقتلعت، وليس بإمكان العالم كله أن يحرم القلعة من هذه الأشياء، باستثناء الأشجار والدوالي، وكانت هذه القلعة فيما مضى ملكاً للصليبيين، لكن ذنوبهم جعلتهم يفقدونها بدناءة كبيرة وبسبب خيانتهم الذاتية، ويحتفظ السلطان الآن دائماً بذخائره في هذه القلعة، وبابنه ووريثه، وإلى هذه القلعة يهرب دوماً حيث يجد الملجأ وقت الحاجة، وعند سفح هذه القلعة توجد قرية اسمها الربض، يسكن فيها أكثر من ستة آلاف مسيحي يتطلعون بشوق إلى إنقاذ الأرض المقدسة.

٤٢ — *حول نهر الأردن*

ويصل الانسان من البحر الميت إلى نهر الأردن الذي هو نهر لايتجاوز عرضه عشر خطوات، ومع أن الأردن نهر صغير، هو عميق جداً وموحل، وهو يفيض أو يتراجع وفقاً للموسم، ففي بعض الأحيان يفيض بمياه الأمطار إلى حد أنه يمكن إبحار سفن محملة عليه، ولهذا النهر قعر موحل جداً، ومياهه عذبة، وفيه سمك رائع، وهو ينبع من حوالي سفر أربعة أيام إلى الشمال من البحر الملعون، وذلك عند سفح جبل لبنان، ويأتي ذلك من جدولين هما«أر» و«دان»، ويمر خلال الجليل، ويأخذ اسمي هذين النهرين، فيصبح اسمه «الأردن»، وهناك عند سفح جبل الكرمل جدول يتدفق من هناك فيصب في«الأر»، وعلى مقربة من البحر الميت، وعلى بعد ميلين قصيرين، وعلى نهر الأردن يوجد المكان الذي جرى تعميد المسيح فيه من قبل يوحنا، ويطلق على هذا المكان اسم مخاضة الأردن، وهنا عبر يوشع مع بني إسرائيل فوق أرض جافة، وهنا أيضاً انقسمت مياه الأردن بناء على أوامر النبي إيليا، وهنا أيضاً انقسمت المياه ثانية عندما ضربها اليشع بعباءة إيليا.

وعلى مقربة من هذا المكان، وليس بعيداً عن ضفة الأردن، جرى بناء دير جميل على شرف يوحنا المعمدان، وهو مسكون من قبل رهبان

إغريـق، الذين أعلنوا أنهم يمتلكون ذراع القديس يوحنا، وقـد نقل هذا الدير، وابتعـد قليـلاً عن ضفـة النهـر، بسبب أن الميـاه تفيض في بعض الأحيـان، ويجتمع مسيحيو البـلاد وجميع الحجاج من البلدان النائيـة مع بعضهم في هذا المكان في يوم عيد الغطاس، ويقرأون هناك من الانجيل باللاتينيـة:«عندمـا ولد يسـوع في بيت لحم» الخ، ويبـاركـون الماء، ويعمـدون الصليب، ويقوم جميع الذين هـم وقتها مـرضى أو فيهم علة مـا، بالقفـز إلى الماء، فيبرأ كلهم من عللهم وأمـراضهم على مشهـد من جميع الناس.

ويوجـد في وادي الأردن كـومة من الغـرلات، حيث مكان الختـان، ومكان البكاء والنحيب، ومـوضع الاثنتي عشر صخرة، التي حملهـا بنو إسرائيل من أرض النهـر، لتكون ذكـرى وشهـادة، وعن هذه الصخـور تحدث يوحنا المعمـدان عندمـا قـال:«إن الله قـادر أن يقيـم من هذه الحجـارة أولاداً لإبراهيم»[متى:٣/ ٩]، ويدعى هذا الوادي باسم وادي عكان، بسبب أنـه جـرى هناك رجـم عكان، لأنه استـولى على ذهب الملك، ومن هذا الوادي جرى أيضاً حمل إيليـا ورفعه إلى السماء في عربة من نار.

وليس أبعـد من ميلين قصيرين من المكان الذي جـرى تعميد يسـوع فيـه، يدخل الأردن البحر الميت، أو البحـر الملعون، ولايرى بعـد ذلك، وهناك سؤال في المشرق: لماذا يتوجب على مثل هذا الماء المبارك، دخول مثل هذا المكان الملعـون؟ ويقـول بعضهم إن لعنة أولهما يمكن أن تزول بمباركة الآخـر، ويقول آخرون: إنه يجري ابتلاعـه بمجرد دخوله، ومن الممكن تصـديق الأمـرين، والذي يبـدو أكثـر احتمالاً بالنسبـة لي هو أنه يجري شربه وابتلاعه من قبل الأرض، لأن ميـاه الأمطار التي تتدفق من جميع التـلال المنتشرة هناك تجعل نهر الأردن عظيماً إلى حـد أنه يكون من غير الممكن لمثل هذه الكميات الضخمة من المياه أن تصب في البحر من

دون أن تجعله يفيض، ويغمر جميع المنطقة من حوله.

وطول نهر الأردن من نبعه حتى نهايته، هو حوالي خمسة وعشرين ميلاً من أميال هذه البلاد، وإلى جانب نهر الأردن هناك كثيراً جداً من الديرة، والقلايات والصوامع مليئة بالنعمة، ويمكن للانسان أن يرى كل أمسية على ضفاف هذا النهر نفسه وأعداداً لاتحصى من الحيوانات الكبيرة والصغيرة تشرب منه، وخاصة الأسود، والثعالب والظباء، والوعول، والأرانب، والخنازير البرية، وما شابه ذلك، وهي تسير بين الناس، وكأنها حيوانات مدجنة، واعتاد في أيامي أن يكون هناك أسد يقف بشكل دائم في مكان محدد، وذلك على الضفة القصوى من الأردن، وكان يتولى مراقبة الناس وهم يعبرون، حيث كان يحرك ذيله مثل كلب، ولايهرب أو يبتعد، ولايؤذي أحداً سواء في النهار أو في الليل، ورغب واحد من رماتنا أن يخيف الأسد وأن يغضبه، فأطلق نشابة نحوه، ولم يتحرك الأسد بل بدا وكأنه يحدق وينظر نحو السهم، لكن عندما رماه الرجل بسهم آخر، زأر الأسد وصاح بالسهم، وكأنه يريد أن يمسكه بفمه ومخالبه، وبعد هذا لم يعد هذا الأسد يرى في هذا المكان، وأخذ يسبب أذى عظيماً لكل من الناس ولحيوانات التحميل.

وبشأن الحيوانات البرية هناك كثير جداً منها في تلك المنطقة إلى حد أن الناس يسوقونهم إلى السوق مثل الأغنام.

وليس بعيداً عن هناك يوجد المكان الذي اسمه تلال الأردن، حيث بنى أبناء رأوبين، وأبناء جاد ونصف سبط منشا مذبحاً كبيراً ليروه، عندما تدخل هذه التلال بين أملاكهم.

٤٣ — *حول رامه — شيلوه — عمواس — شيكار — السامرة والجليل.*

ومن الأردن يصل الانسان في ثلاثة أيام إلى الجليل، واليهودية،

والسامرة، وبعد رؤيته لعدد كبير من المشاهد، يخلف القدس على اليسار، ويصل إلى مدينة رامة(صموئيل الأول:٢٥/ ١) القائمة فوق جبل إفرايم، ويسكن في هذه المدينة في هذه الأيام القاضي — أي أسقف المسلمين — وقد واجهنا هناك مرة كثيراً من المتاعب حول بعض المسيحيين الذين اعتقلوا هناك من خلال حماقتهم، وذلك قبل أن نطلق سراحهم.

وكان النبي صموئيل قد ولد في هذه المدينة، وفيها دفن، وعلى مقربة من هذه المدينة حدث أن كان النبي حبقوق حاملاً إلى الحصادين غداءهم، عندما أمسكه أحد الملائكة وحمله إلى دانيال الذي كان في عرين الأسود في بابل، وليس بعيداً عن رامة التي كانت فيما مضى جميلة، لكنها الآن مهجورة، توجد مدينة اسمها الرامة، وهي مسقط رأس يوسف الذي دفن المسيح.

وعلى مقربة من هذا المكان، وعلى بعد ثلاثة أميال عنه، قامت فيما مضى مدينة شهيرة، هي الآن قرية صغيرة، اسمها شيلوه، وفيها توقف تابوت العهد، واجتمع العبرانيون مع بعضهم هناك للصلاة.

وليس بعيداً عن شيلوه توجد عمواس، التي كانت فيما مضى مدينة جميلة، لكنها الآن مهجورة، وفيها ظهر المسيح إلى حواريه بعد قيامته، واسم هذه المدينة الآن نيكوبولس(كذا — خطأ)، وعلى مقربة من نيكوبولس، على جهة اليمين، كانت تقوم فيما مضى مدن مشهورة جداً، غير أنها الآن مهجورة، نذكر منها:جبعون، وعجلون، وذلك حيث قاتل يشوع ضد خمسة ملوك، وبناء على طلبه أطالت الشمس بقاءها ولم تغب، حتى هزم أعداء بني إسرائيل.

فضلاً عن هذا، قام — ليس بعيداً عن شيلوه، في منطقة السامرة — فيما مضى مدينة جميلة في وادي، وكان اسم هذه المدينة شيكار، ولكن

اسمها الآن نابلس، وهي في هذه الأيام كلها مهجورة، وهناك جرى اغتصاب دينة ابنة يعقوب، وقد انتقم لها أولاده.

وعلى مقربة من هذا الطريق قام فيما مضى كنيسة صغيرة جميلة، هي الآن مهدمة إلى حد كبير، يوجد فيها جب يعقوب، وإلى جواره عندما كان المسيح جالساً منهكاً بسبب سفره في هيئة ضعفنا البشري، وقتها سأل امرأة سامرية اعطاءه الماء ليجدد نشاطه، وقال لها حسبما جاء في الكتابات المقدسة:«لقد امتلكت خمسة أزواج».

وعلى مقربة من هذا الجب، قام يربعام، ملك إسرائيل، بصنع عجل ذهبي، قام بنو إسرائيل بعبادته، وأيضاً في حقل قريب من هذا المكان قتل داوود جالوت، هذا وهناك أماكن أخرى كثيرة مشهورة من الممكن مشاهدتها على طول هذا الطريق، سيقتضي الحال وقتاً طويلاً للحديث عنها.

وإذا ماغادر الانسان نابلس، يصل إلى السامرة، التي كانت فيما مضى عاصمة البلاد كلها، ولهذا السبب تعرف البلاد كلها باسم السامرة، وقد كانت هذه فيما مضى مدينة فائقة الجمال، ومشهورة، وملكية، ومدينة عظيمة جداً، وذلك حسبما تدلك خرائبها على ذلك، وهي في وضعها تشبه من جميع الجوانب مدينة القدس، وقد سكن ملوك إسرائيل فيما مضى في هذه المدينة، وفي هذه المدينة أيضاً جرى دفن القديس يوحنا المعمدان بين النبيين إيليا وعوبيديا.

وعرفت هذه المدينة بالقديم باسم السامرة، وبعد ذلك باسم سبسطية، واسمها الآن إيبلين(يبنى)، ومنها تعرف حتى الآن القبيلة المسيحية الرئيسية في تلك البلاد باسم«الايبلينية»(كذا)، وكان هؤلاء في البداية فرسان فرنسيين، ولدى استرداد الأرض المقدسة وقعت هذه المدينة في حصتهم.

وبعدما يكون الانسان قد فرغ من رؤية المشاهد المتقدمة الذكر في السامرة، يمضي إلى سهول الجليل، مخلفاً الجبال خلفه، والجليل مقاطعة من مقاطعات الأرض المقدسة، وهي مقاطعة جليلة، فيها سهول غنية، وروابي، ومراعي، وأعشاب، وأشياء أخرى جيدة، مع وديان مثمرة جداًوجميلة، ويقوم فوق سهولها، وعلى سفوح روابيها المدن التالية: نين، وكفرناحوم، وبيت صيدا، وقانا الجليل، لكن هذه المدن جميعاً الآن مهجورة، أو شبه مهجورة، ولايعطين انطباع أنهن كن قط لهن أي شأن، والأشياء التي صنعها الرب فيهن عندما كان بالجسد مثلنا، قد ورد ذكرها بتوسع في الانجيل، وبناء عليه لست مهتماً بتكرار ذلك.

وعلى مقربة من نين توجد عين دور، التي عند سفحها يجري جدول قيسون، ولقد تمجدت أرض الجليل هذه وأشرقت بمعجزات المسيح الكثيرة فيها، وعند حدود الجليل تقوم جبال جلبوع، التي هي تلال منخفضة، مليئة بكثافة بالأعشاب الخضراء، والمزروعات، والمراعي، وعلى هذه التلال سقط شاؤول، ويوناثان، وبنو إسرائيل، وعنهم قال داوود:«يا جبال جلبوع لايكن طل ولامطر عليكن»[صموئيل الثاني:١/ ٢١]، ويقول بعضهم أنه لايسقط عليهم لاندى ولا مطر، وهذا أمر غير صحيح، لأن الانسان يمكنه أن يرى أنه قد قام فوقهم عدد كبير جداً من الديرة الجميلة، وكان ذلك فيما مضى، وتظهر الرسوم أنهم كانوا ملكاً لطائفة السسترشيان، ولطائفة القديس بندكت.

وفي أحواز جبال جلبوع تقوم مدينة بيت أوليا، التي سكنت فيها يودث، التي قطعت رأس هولوفرنس بصعوبة، غير أن المدينة مهدمة الآن.

وبعدما يرى الانسان كل واحد من هذه الأشياء، يغادر سهل الجليل، ويأتي إلى الناصرة، التي كانت فيما مضى مدينة شهيرة، وهي جميلة جداً حتى هذه الأيام، قائمة في وادي مزهر وجميل، وهي محاطة من كل

جانب بالجبال، وهي ليست مسورة، لكن بيوتها قائمة بشكل أحدها بعيد عن الآخر، ومع ذلك هي مليئة بالسكان، وتلطف الرب في هذه المدينة بالاعلان من خلال جبريل إلى العذراء المباركة مريم بأنه قد صار رجلاً.

وقد بني في هذه المدينة كنيسة عظيمة جداً وجميلة، ويوجد في داخلها، وعلى مقربة من السدة هناك بيعة جميلة، قائمة فوق البقعة التي أعلن الرب فيها بأنه قد صار إنساناً من أجلنا، ويوجد في هذه البيعة عمود صغير، وقف في مقابيله جبرائيل عندما أعلن عن المسيح، وماتزال صورته مطبوعة على العمود، مثل صورة ختم على الشمع، وهي موجودة حتى هذا اليوم.

ويوجد خلف الكنيسة نبع ماء، منه اعتادت مريم المباركة دوماً على نضح الماء، وعلى مقربة منه غالباً ما تحدث إليها الملائكة وواسوها، وفي أيامي حاول المسلمون كثيراً سدّ هذا النبع مراغمة للمسيحيين والحجاج، لكنهم لم يستطيعوا مطلقاً إيقاف الماء ومنعه من التدفق، ودنس المسلمون أيضاً هذه الكنيسة المقدسة والمجيدة بطرق متنوعة، ذلك أنهم يسلخون الحيوانات الميتة فيها من أمثال:الحمير، والجمال، والكلاب، والثيران، ويرمون ما في أجوافها في داخلها، ولهذا سيتعذر على الانسان زيارة هذه الأماكن العالية القداسة بسبب الروائح النتنة.

ويسكن هناك في الناصرة أكثر المسلمين شروراً، وسوءاً، وأعيان يعرفون باسم دهيس Dehes ، حيث نادراً مايعبأون بالسلطان، لكن حتى يدخل الانسان إلى المدينة يحتاج إلى جواز منهم وأمان، وذلك قبل كل شيء.

وعلى مسافة ميل من الناصرة، هناك صخرة فوق جبل، يطلق عليها اسم«قفزة الرب»، وهي حيث مرّ يسوع من بين وسط اليهود، ومضى

في طريقـه، وكـان ذلك عندمـا أرادوا رميـه من أعـلاها، وذلك حسبما تحدثنا الكتابات المقدسة، وماتزال صـورة يسوع مطبوعة حتى هذا اليوم على الصخرة التي عبرها، ومن الممكن مشـاهدة ذلك، وكأنها قد طبعت فوق شمع طري.

وإذا مـا سافـر الانسـان من هذا المكان، يصل في منتصف النهـار إلى جبل الطور، الذي هو جبل منفـرد قـائم بنفسه فـوق سهل، وهو عـالي جـداً، لكنه ليس واسعـاً، وهو مـن جميع الجوانب يشبـه هضبـة اسمهـا ديزنبيرغ Dezenberg ، في أسقفية بادربورن.

وفـوق قمة هذا الجبل تغيرت هيئة يسـوع المسيح، وأشع وجهـه مثل الشمس، وكان ذلك بحضور:بطرس، ويوحنا، وجيمس، وهنا ظهر كل من موسى وإلياس، وهما يتحدثان إليه، وقد بني فيما مضى فوق البقعة التي تغيرت هيئتـه عليهـا ديـر جليل وملكي، تابع لطائفـة القـديس بندكت، وكـان راعيه يستخـدم على مـراسيمه ختماً على الرصـاص مثل البابا، ولقد رأيت كثيراً من هذه الأختام على مراسيم، وعليك أن تعرف أن عيد تغيير الرب لهيئته محافظ عليه بـوقار في بلاد ماوراء البحار، وهو يحل في يوم عيـد القديسين فيلكس وآغـابيتوس Agapetus[٦ — آب]،ووقتهـا يحتفل به بنبيذ جـديد، وفي ذلك اليوم يلتقي جميع النبـلاء وسكان المدينة مع بعضهم في الكنيسـة، ويضعون أعلامـاً على كنائسهم ويسهرون ويبتهجون طوال الليل، والـذي تجري قراءته في القداس هو: Dies sanctificatus و Domnus dixit ad me filius الخ، illuxit ، الخ ومـن الانجيل: Assumyist Jesus Petram et johannem, الخ، وقـد قام المسلمـون باحتلال قمـة هذا الجبل مع الدير، لأنه كان فيما مضى محاطاً بشكل جيـد بأسوار وأبراج، وكل شيء فوق القمة الآن مدمـر ومهجور، لكن الأسوار والأبراج باقية في معظم الأجـزاء، ويقرأ الانسـان حـول هذا الجبل أشياء أخـرى كثيرة، تحدثت

عنها الكتابات المقدسة وأتت على ذكرها.

ويوجد عند سفح جبل الطور قلعة حصينة جداً وعظيمة اسمها قلعة تل الصافية، وهي قد بنيت من قبل الصليبيين، للدفاع عن الطريق الذي يقود إلى الجبل، لأن الجبل ظل دوماً مملوكاً من قبل المسلمين، ويوجد في هذه المناطق قبيلة كبيرة وجليلة من المسيحيين، اسمها عشيرة تل الصافية، لأن هذه القلعة كانت قلعتهم، إنما أين ولد آباؤهم قبل الاستيلاء على الأرض المقدسة، ما من أحد يعرف، وغالباً ما سئلت من قبلهم فيما إذا كان في بلادي أي قوم يقولون إن لهم أقرباء في هذه المناطق، أو يحملون رنوكهم فوق ترستهم.

ويذهب الانسان من جبل الطور إلى جبل حرمون، الذي هو جبل جميل وممتع، ويصل إلى سهول واسعة من سهول الجليل، وذلك حيث سقط سيسرا مع جيشه، ثم يصل الانسان إلى شواطىء بحر الجليل، ومدينة سينارت، التي حملت فيما بعد اسم طبرية، واسها الآن طيبريا، وهي قائمة على شاطىء البحر، وهي مكان بائس، ولم يكن قط أكثر بؤساً، لكن فيما مضى كان لها أسقفاً، لأن صاحبها امتلك الجزء الأعظم من بحر الجليل، وعلى مقربة من هذه المدينة هناك حمامات طبيعية حارة، مثل حمامات آخن في هذه البلاد، ويبدو أنه كان يقوم على شواطىء بحر الجليل كثير من المدن الأخرى والقرى، مع أنه لايوجد عن أي منها روايات كثيرة، وفيها سكن حواريو المسيح، وآخرون من الناس الفقراء وصيادو الأسماك، وهم مابرحوا يسكنون هناك.

وطول محيط بحر الجليل أو بحيرة طبرية عشرين ميلاً من أميال هذه البلاد، وفيها مياه عذبة كثيرة، وأسماك كثيرة، ومياهها فائقة العذوبة، ويصب نهر«الأر» في هذا البحر من جانب،ونهر«دان» من الجانب الآخر، ومن الممكن رؤيتهما وهما يعبران خلال البحر، ويخرجان منه على شكل نهر واحد، عندها يطلق عليه اسم الأردن، وفوق هذا البحر

وبجواره صنع الرب — وهو على هيئة إنسان — كثيراً من المعجزات، فمن هذا البحر دعا يسوع بطرس وأندرو، وجعلهما حواريين له، وفوق مياه هذا البحر مشى المسيح حافي القدمين، وأمسك ببطرس عندما بدأ يغرق، وعلى ظهر هذا البحر نام يسوع في السفينة، وأوقف الريح وسكّنه عندما ثارت العاصفة، وأبحر يسوع فوق هذا البحر مراراً عندما كان في هيئة ضعفنا البشري، ومجّده بكثير من المعجزات.

وإلى جانب هذا البحر ظهر يسوع لحوارييه بعد قيامته، وأكل سمكاً مشوياً، وقرصاً من عسل النحل، وفي هذا المكان قامت فيما مضى كنيسة جميلة، هي الآن مهدمة، وإلى جانب هذا البحر هناك جبل، أطعم الرب عند سفحه خمسة آلاف إنسان، بخمسة أرغفة وسمكتين، وذلك حسبما تحدث الانجيل عن ذلك.

ويوجد على قمة هذا الجبل، في الجهة الشمالية، قلعة مرتفعة وحصينة جداً، وهي تعرف مع قريتها باسم صفد، وفيها في أيامي يسكن يهودي من وستفاليا مع زوجته، وليس بعيداً عن هذه القلعة قامت فيما مضى مدينة جميلة اسمها دان، غير أنها الآن شبه مهجورة، وهذه هي النهاية الأخرى لأرض الميعاد، لأن أرض الميعاد تمتد من دان إلى بير السبع، أي من الشمال إلى الجنوب، وطولها حوالي خمسة وعشرين ميلاً، وعرضها من أريحا إلى يافا، وذلك من الشرق إلى الغرب، ومقدار ذلك حوالي أحد عشر ميلاً بأميال هذه البلاد، وذلك حسبما سمعت من بعض رسل السلطان، ومن قوم موثوقين جداً من أهل البلاد، هم أيضاً قاموا بوصف البلاد.

وليس بعيداً عن دان، باتجاه الشمال، توجد المدينة التي كانت فيما مضى جميلة، أي مدينة بانياس، التي اسمها الآن قيسارية فيليب، وهي قائمة بشكل بهي عند سفح جبل لبنان، لكن سكانها عددهم قليل، وعلى مقربة منها حدث أن سأل يسوع حوارييه:«من يقول الناس إني أنا

ابن الانسان»[متى:١٦/ ١٣]، فهذا ماذكره الانجيل.

وعلى مقـربة من هذه المدينة هناك نبـع قـريب مـن الجبل، هو الذي يفصل فينيقيـا عن أدوم، ويعـرف هذا النبـع بشكل عـام باسم السبت، لأنه يتدفق في يوم السبت، وبعـد مشاهدتك لجميع هذه المشـاهد، تقوم بعبور الأردن عند المكـان الذي يغادر فيه الجليـل أولاً، وفي بلاد ماوراء الأردن تلقى سبطان ونصـف سبط ميراثهما، وهنا أيضـاً يفصل الأردن الجليل عن أدوم، ويتابع الانسان سفره فيرى كثيراً من القرى وأماكن لم يرد ذكرها في الكتـابات المقدسـة، ويصل — إذا ما اختـار — إلى قرية دفن فيهـا أيوب، وحـدث على مقربة من هذه القـرية، أن وقع القـديس بولص مصعوقاً وتحول (إلى المسيحية) وهي قائمة على بعد سفر يوم من دمشق.

٤٤ — *مدينة دمشق*

وإذا ما سافـر الانسان من هذه القرية، فإنه يصل إلى دمشق، ودمشق مدينة فائقة القدم،أسسها دمشق، خادم إبراهيم، وهي قائمة فوق المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، وهي مدينة فائقة الجلالة، ومجيدة جداً، وعظيمـة الجمال، وغنيـة بجميع أنواع البضـائع، وهي بهيجـة في كل مكان، غير أن حلاوتها مصطنعـة أكثر منها طبيعية، وفيهـا وفرة عظيمة من الأطعمـة، والتـوابل، والأحجـار الكـريمـة، والحرير، واللآلىء، والأقمشة المذهبة، والعطور من الهند، ومن بلاد التتار، ومن مصر، ومن سورية، ومن أمـاكن من جانبنا من البحر المتوسط، وفيهـا جميع الأشياء الثمينة التي يشتهيهـا قلب الانسـان أو يتصـورها، وهي محاطة ببسـاتين وحـدائق، تجري سقـايتهـا بالماء من الداخل ومن الخارج، وبـوسـاطة الأنهار، والجداول، والينابيع، وقـد نظمت ببراعة، من أجل تأمين رفـاه الانسان، وهي مكتظة السكان، وذلك فوق حد التصور، وهي مسكونة بمختلف الصناع والتجـار، ومن الأكثـر براعـة من الحرفيين وأعظمهم

جلالة، وفيها صناع وتجار هم الأكثر نبلاً، وهي مزينة من الداخل، بحمامات عددها فوق حد التصور، وبطيور تغني طوال السنة، وبجميع أنواع المسرات، ووسائل الراحة، وألوان التسلية.

وكل حرفة وتجارة مقيمة بشكل مستقل في شارع خاص، ويقوم كل حرفي — تبعاً لحرفته ولبراعته — بتقديم عرض رائع لأعماله أمام واجهة بيته، ويظهر براعته، وأفضل ما يمكن أن يعمله في ميدان حرفته، ويحاول التفوق على جيرانه إذا كان ذلك ممكناً، ولهذا يزين بيته ويجمله ويجعله فخماً أكثر من التصور، ومما يمكنني إخباركم.

ويعمل التجار مثلهم بتجاراتهم، أما الحرفيون فيعملون هناك بشكل رائع، وببراعة فائقة جداً، غير أنهم يبيعون كل شيء بأثمان عالية جداً، ويمتلك الأغنياء من سكان المدينة جميع أنواع الطيور التي تغني، وأقفاص طيور يعلقونها أمام بيوتهم فيها من الطيور أمثال: العندليب، والسلوى، والقنبرة، والدراج، وما شابه ذلك، فكلهم يغنون بشكل رائع، ومتساوي تماماً طوال السنة كلها، وهم أفضل في أيام الشتاء، منهم في أيام حرارة الصيف، ويمكنك أن تسمع جميع الأنواع الأخرى من الطيور من أمثال: الغربان، والهدهد، والطيور السوداء، وما شابه ذلك، ممن يمكن تعليمهم محاكاة كلام الانسان، وبذلك تجدهم يتكلمون مثل البشر بمختلف الألسنة.

ومع أن المدينة مكتظة بالسكان كثيراً، وكذلك مع أن البضائع تترك تقريباً بلا حراسة، فإنه لايوجد إنسان متقدم السن كثيراً يتذكر أن أي إنسان قد قتل هناك، ونادراً جداً أن جرت سرقة أية بضائع معروضة للبيع هناك، هذا ولكل بضاعة ولكل نوع من الأشياء سوق خاص به لبيعه.

وفي السوق الذي تباع فيه الأطعمة، من الممكن هناك رؤية أعظم

حشد من الناس يمكن رؤيته، اجتمع في مكان واحد، ويكون ذلك كل يوم، حيث تتوفر جميع أنواع الأطعمة التي يمكنك أن تتصور وجودها، وكثير منها قدجرى طبخه بشكل فاخر، وهم يعتنون عناية كبيرة بهذه الأشياء، ويبيعون كل شيء بالوزن والميزان، كما وتباع هناك أنواع عديدة من الخبز.

ويوجد في دمشق قلعة حصينة جداً، هي بحوذة السلطان، وفيها يسكن ملك دمشق، وفي سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعين لتجسيد ربنا، حدثت في عشية يوم عيد القديس جرجس مذبحة وملاحقة وتعذيب للمسيحيين من قبل ملك دمشق والرعاع فيها، مثلما حدث في زمن متأخر مذبحة لليهود في هذه البلاد[بلاد المؤلف]، غير أن أعمال التعذيب لم تستمر بفضل الرب لمدة تزيد على الشهر، وكله جرى قمعه والانتقام له من قبل السلطان، كما ستسمع بشكل جيد فيما بعد.

ويوجد في دمشق أعداد كبيرة جداً من الكنائس لكل من الكاثوليك والهراطقة، كما هناك أديرة مليئة بالنعمة، ومن هذه الكنائس أخذ المسلمون واحدة من الكنائس الجميلة، واتخذوها كنيسة لأنفسهم، وهي التي يرقد فيها جسد ذلك الحكيم العالم، والمرجع الموثوق الهام، وأعني به القديس يوحنا الدمشقي، ويوجد على واجهة هذه الكنيسة صورة جلالة الرب مرسومة بشكل فخم.

فضلاً عن هذا، أمكن بشكل فني جعل نهر فرفر يجري خلال دمشق، حيث يدير ببراعة وإبداع كثيراً من الطواحين، ويوجد من حول دمشق حدائق وبساتين لانهاية لها، فيها تنمو النباتات والأعشاب، والفواكه، والورود، والزهور، على مدار السنة، وهي ساحرة بسبب غناء جميع أنواع الحمائم والطيور، التي تغرد في أيام الشتاء، أكثر مما تغرد في أيام حرارة الصيف.

وتحيط هذه البساتين والحدائق بالمدينة إلى مسافة تقارب الميلين، وجميع البلاد حتى إلى مناطق نائية فيها وفرة عظيمة من الفواكه الطازجة، طوال أيام السنة، وبناء عليه يرددون في الشرق ويقولون بإجماع:«دمشق هي رأس سورية»، والاغريق صدوراً بشكل دائم عن حبهم لها واحترامهم يطلقون دوماً على أكبر أبنائهم اسم بولي داماس Polydamas ، أي مدينة دمشق، وسيقتضي الحال وقتاً طويلاً للحديث عن عجائب دمشق الأخرى، وعن جمالها.

والمسافة من دمشق إلى الجبل الذي أراه الرب إلى إبراهيم، أقل من مسافة نصف يوم وهو الجبل الذي توجب أن يضحي عليه بابنه اسحق، واسم هذا الجبل، جبل سعير أو جبل ساردينيي Sardenay (صيدنايا)،ويعبر الانسان أولاً نهري دمشق: أبانا وفرفر، فيجد على جبل سعير الوعر هذا، أو ساردينيي[صيدنايا] ديراً جميلاً، وهو محاط من كل جانب بأسوار فائقة القوة، مثله في ذلك مثل قلعة، وهو مسكون من قبل رهبان إغريق(أرثوذكس) وراهبات، وفي هذا الدير، وفوق البقعة التي كان إبراهيم سيضحي فيها بابنه اسحق، تقوم كنيسة جميلة، يوجد في داخلها، خلف المذبح، في قوس نصف دائري، في الجدار، تمثال لمريم المباركة، وهي ترضع ابنها، وهو مدهون مرسوم من عند الوسط نحو الأعلى فوق منضدة خشبية، ومسيجة بحواجز حديدية، غير أن هذه الصورة صارت سوداء داكنة بسبب الزمن والتقبيل، لذلك بات من الصعب تمييز الانسان للصورة، إلاّ قليلاً من اللون الأحمر يمكن رؤيته على الملابس، ومع ذلك عمل الرب من خلال هذه الصورة كثيراً من المباركات والعجائب وأعمال النعمة.

وقد قرأنا أنه في الأيام التي كان الصليبيون يحتلون فيها الأرض المقدسة ويمتلكونها، رغبت امرأة أرملة، واختارت أن تخدم الرب، بأن تتخذ صومعة على هذا الجبل، ورغبت في أن لايعلم إنسان بذلك، حتى

لايعاق تكريسها لنفسها وعبادتها بأي عمل دنيوي، وعلى كل حال اتخذت لنفسها عقيلة بشكل سري، كانت تزورها من وقت إلى وقت، وتجلب لها الأشياء الضرورية، وتقوم بخدمتها وصنع القداسات لها، وحدث مرة أن هذه العقيلة التي وثقت بها، كانت على نية القيام بزيارة القدس والأماكن المقدسة الأخرى، فرجتها الأرملة الناسكة بتواضع وتقوى أن تجلب لها صورة لمريم المباركة مرسومة على رقيم، لأنها من صميم قلبها متشوقة لامتلاك مثل هذه الصورة، ووعدتها العقيلة بأن تفعل ذلك، وودعت الأرملة الناسكة، وذهبت إلى مدينة القدس المقدسة، وبعدما زارت الأماكن المقدسة حصلت على لوحة عليها صورة القديسة مريم، وارتحلت عائدة تريد جبل سعير هذا، أو «صيدنايا»، وعندما كانت على مقربة من نهر الأردن هاجمها أسد مخيف، ولم يكن بإمكانها الفرار، بل دافعت عن نفسها بيديها ضد وثبة الأسد عليها، حيث رفعت لوح الصورة وكأنه ترس، وما أن لمس الأسد اللوح حتى تمزق إلى أشلاء، وتابعت العقيلة رحلتها من دون انقطاع، ووصلت إلى الجبل، غير أنها أخفت ما حدث لها، ونزل بها عن الأرملة الناسكة، وقد حدثتها عن أشياء كثيرة حول الأماكن المقدسة، وبعدما أخبرتها بكل شيء سألت الأرملة العقيلة عما إذا كانت جلبت اللوحة التي قد رسم عليها الصورة المطلوبة، وأجابتها العقيلة التي اعتقدت أن اللوحة سوف تمتلك دوماً الفضائل نفسها التي امتلكتها من قبل، وقالت لها بأنها لم تجلبها بل نسيتها، ولدى سماع الأرملة بذلك حزنت كثيراً، وتأسفت، وتحسرت بعمق، حتى أنها لم تستطع منع نفسها من الانفجار بالبكاء، وعندما أصرت العقيلة على موقفها، انغلقت جميع أبواب الصومعة والبيعة، وحبستها بشدة في داخلها، ولدى رؤيتها بأن هذا قد تمّ بإرادة الرب، قامت هذه العقيلة على الفور بالاعتراف إلى الأرملة، حيث أخبرتها بأنها حصلت على اللوحة، وأخبرتها بتفاصيل ما حدث لها أثناء رحلتها فيما يتعلق بالأسد وبأمور أخرى، وعندما

سمعت الأرملة بهذا قدمت الشكر مراراً إلى الرب وتسلمت اللوحة ببهجة، واحترام، وتقوى، ووضعتها في مكان هو الذي تقوم الآن فيه، وبدموع وصلوات قدمت التشريف للمسيح من أجل الصورة، وبعد أمد شرعت هذه الصورة ترشح بشكل واضح بزيت له رائحة طيبة، ويجري الزيت ليصب في حفرة عملت أمام الصورة، ومابرح هذا الزيت يجري حتى هذا اليوم، غير أنه بسبب أعداد الحجاج، يقوم الرهبان في هذه الكنيسة بمزج هذا الزيت بزيت آخر، ويعطونه إلى الحجاج، لكن ما من شك بأن الصورة ترشح بزيت طيب الرائحة، ويتغير هذا الزيت خلال سنة إلى حليب، ثم يتغير الحليب فيما بعد إلى دم، وهو ما رأيته مراراً بعيني، فلقد رأيت في أوقات متنوعة هذا الزيت وقد تغير على هذه الصورة، ومراراً كثيراً امتلكت بعض الزيت الذي تغير هكذا بشكل إعجازي، ولهذا الزيت فضائل عظيمة ضد العواصف في البحر، وذلك عندما يجري تعليقه داخل زجاجة في مؤخرة السفينة، فوقتها تهدأ أشد العواصف وأعنفها على الفور، وهذا ما رأيته مراراً بوضوح.

ومن جهات عدة من الواضح أن لدى الرب محبة خاصة لهذا المكان، أو الجبل، بدليل أنه أظهر لابراهيم أن بإمكانه التضحية بابنه فوقه، لأنه عمل عدداً كبيراً من المعجزات تشريفاً لأمه مريم، التي رسمت صورتها هناك، ولأنه على الرغم من كثير من الاضطرابات والغزوات التي شهدتها البلاد وحدثت فيها، فهذه البلاد قد فقدت بشكل غريب وربحت من قبل شعوب مختلفة، ومع هذا فإن رهبان وراهبات هذا المكان بقيوا دوماً من دون أذى.

ولقد قرأنا — والمسألة ماتزال حاضرة في ذاكرة الناس — أنه بعدما استولى هولاكو على بغداد، الأمر الذي أتيت على ذكره — قام بنهب مصر، وجميع سورية، والمنطقة بأسرها، فخاف رهبان وراهبات هذا

المكان، وفكروا بمغادرته، وهنا ظهر الرب لهم وكذلك العذراء المباركة، بشكل مرئي، وواسوهم، ولذلك لم يبق لديهم خوف مطلقاً، ولم يغادروا المكان، ولأنهم رغبوا بالبقاء على مقربة من الرب والعذراء، اللذان شجعانهم بشكل مرئي، لم يتعرضوا بعد ذلك لأي أذى، أو ضرر من إنسان أو حيوان، أو وحش، بل كانوا في أيامي بنعمة خاصة وحظوة مع السلطان، الذي صنع لهم كثيراً من الأعمال المفيدة، وحماهم من كل جانب مثل أب.

وعند سفح جبل سعير، هناك قرية عظيمة جداً وجميلة، يسكن فيها إغريق(أرثوذكس) وسريان، وهي مليئة بالخمرة الجيدة وبكثير من الأشياء الأخرى الجيدة، وهناك متوفر في كل من الصيف والشتاء، سنة بعد سنة، عناقيد عنب طازج موجودة فوق الدوالي، وهي في الحقيقة محروسة بشكل خاص، ومعزولة لهذا الغرض، وقد صنع الرب فوق هذا الجبل كثيراً من العجائب الأخرى والمعجزات، وهذا كله صادر عن رعاية خاصة به وعاطفة نحوه، وذلك بفضائل تلك الصورة، التي تحتاج إلى وقت طويل للحديث عنها.

٤٥ — *حول وادي البقاع — ولبنان — وبيروت*

ولدى متابعة الانسان السفر من جبل سعير، يمكنه أن يرى أشياء كثيرة لاتحتاج إلى الذكر على الطريق، وإذا ما خلف الانسان مدينتي الرامة وطرابلس على جهة اليمين يصل إلى وادي اسمه البقاع، الذي مايزال حتى هذا اليوم يطلق عليه اسم سهل نوح، لأن نوحاً قد سكن هناك بعد الطوفان، وهذا السهل فائق الخصوبة والغنى، ومليء بشكل عظيم بالمروج، والمراعي، والأشجار والينابيع، والقطعان، والأسماك، والقمح، وهو محصور بين الجبال، ومسكون من قبل فلاحين مسلمين.

وبعدما تكون قد فرغت من رؤية هذا كله، تصل إلى جبل لبنان،

الذي كنت قد أتيت على ذكره أيضاً، ثم تصل إلى الجبل الأسود، الذي يمتد بعيداً حتى أنطاكية، والذي عليه تنمو الأشجار التي منها يجري تصنيع القسي الزيارة، وتحمل هذه الأخشاب من هذه الجبال إلى بلدان نائية ومناطق بعيدة.

ويسكن عند سفح هذا الجبل حشد كبير من المسيحيين المتمسكين بالعقيدة اللاتينية، والمرتبطين بكنيسة روما، وقد رأيت عدداً كبيراً من أساقفتهم الذين جرى رسمهم من قبل رؤساء أساقفة لاتين، والذين هم بغاية الشوق الدائم، والحنين المستمر لقدوم الصليبيين، ولاسترداد الأرض المقدسة.

وبعد رؤية جميع هذه الأماكن، وقرى جميلة، وأماكن، ومزارع يصل الانسان إلى مدينة قائمة على شاطىء البحر اسمها بيروت، وهي مدينة كنت قد أتيت على ذكرها، وهذه المدينة ميناء عام للحجاج، وعلى مقربة منها قتل الشهيد القديس جرجس التنين، وحول المدينة والمنطقة كلها إلى الايمان المسيحي.

ومن بيروت يستطيع الانسان أن يعود إلى أي بلد من البلدان، يود الذهاب إليه على هذا الطرف من البحر المتوسط، وهذه مسألة أدع إقرارها إلى اختياره الخاص.

وهذه هي طرق السفريات والرحلات في الأرض المقدسة، وهي طرق موثوقة، مع أنها لاتتماشى مع طرق الحجاج العامة، وعبرها ومن خلالها رأيت كما أريد، جميع الأماكن المقدسة المتقدمة الذكر، والصوامع وذلك بالوضع والشكل الذي ظهروا فيه في السنوات المذكورة من تجسيد ربنا.

والذي أعرفه أن ما من إنسان حي يمكنه أن يطعن بروايتي بأي حال من الأحوال، لأنني أنا الشاهد على كل ما رأيت، أو سمعت من رجال

صادقين، وهذه الرواية صادقة تماماً، كتبتها صدوراً عن التقوى والاحترام اللذان أنا مدان بهما إلى الأب الجدير بالاحترام، والمولى في المسيح، السيد بلدوين، أسقف كنيسة بادربورن، وباسم الرب كنت قد بدأت، وباسمه أختم الشي نفسه، وله الحمد والمجد إلى الأبد، والأبد، آمين.